

الكنبةُ الزرقاءُ

الكتاب: الكنبه الزرقاء

المؤلف: رضوان علوي

التصنيف: روايه

الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: يناير 2018

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-39-062-6

إذن الطباعة: MC-02-01-9563777

الطبعة: مطابع GOLDEN CITY - أ.ع.م - الشارقة، 065322347



جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

رضوان علوي

# الكنية الزرقاء



إهداء

إلى سارة ..

الشخصية الحقيقية الوحيدة في القصة.



## تقديم

هذه الرواية لا تحمل في طياتها الكثير من الأحداث. ولكن لا تتمعن كثيراً في الحوارات، الأحادية خاصة، لأن فهم كل كلمة منها وتأويلها بالشكل الصحيح قد يؤدي بالقارئ إلى الاكتئاب.





حرّر رقبتة من ربطة العنق الزرقاء، انتزع حلتة كما تنتزع الأفعى جلدها، واستلقى على كنبته الزرقاء. كل شيء في حياته كان خاضعاً للون الأزرق؛ الجدار الأزرق السماوي، السجاد الأبيض المزركش بالورود الزرقاء، القمصان وربطات العنق وحتى الجوارب، وتلك الكنبه المفضلة لديه، في الواقع كان يفضلها لأنه لا يملك غيرها، أما في الخارج فقد كان يرتدي نظاراته الزرقاء البحرية حتى يرى كل شيء يكتسي بلونه المفضل، وحتى لا يزعج عينيه الفاتحتين لون الثلج الناصع الذي في غالب الأحيان يغطي كل شيء ما عدا السماء في الصيف والطرقات الرمادية بعد مرور جرافات الثلج الصفراء.

أغمض عينيه لثلاث ثوان بلا أي سبب ثم فتحها ببطء شديد وهو يراقب السقف، نزع حذاءه بأقدامه ثم مال برأسه يساراً وحدّق في التلفاز المغلق لوهلة، مدّ يده بصعوبة نحو جهاز التحكم وضغط على زر التشغيل. لم يبالي حتى بالنظر إلى التلفاز مرة أخرى. زجّ حاجبيه كأنه يحاول تذكر شيء مهم ثم رفع سبابته اليسرى معلناً ظفره بالذكري، أنزل رأسه قليلاً قريباً من الطاولة البنية المغبرّة القابعة ما بين الكنبه والتلفاز واقضة بصعوبة على سيقانها الثلاثة وحجر أصفر يحاول جاهداً أن يجاري البقية حتى لا يضيع التوازن. نظر في الطابق السفلي للطاولة ومد يده يحركها يمانة ويسرة بين الكتب والأوراق وبعض قوارير الجعة حتى وقع أخيراً على ضالته؛ صندوق من الورق المقوى، لم يتكبد حتى عناء سحبه من مكانه، فتحه دون أن يلقي عليه نظرة وسحب منه قطعة



بيتزا متبقية من عشاء البارحة أو الشهر الماضي ربما، حدّق فيها وهو يتصاعد قليلاً بظهره على طرف الكنبة الأيسر، وما إن عدل جلسته بما يرضيه حتى أخذ يلتهم غنيمته ويضطرب أذنيه بصوت مضغ البيتزا وخشخشة التلفاز الصامت.

أكمل وجبته المتعفنة اللذيذة وأغمض عينيه للحظات، شعر فجأة بأن صوت التلفاز الصامت يزعجه قليلاً.

"إنه يوم الثلاثاء!"

قال بصوت عال:

"ما زال أمامي حتى نهاية الأسبوع."

أطبق شفثيه يتحسّس أفكاره ثم عاد يحدث نفسه وهو يراقب الفوضى العارمة فوق طاولته:

"اليوم الأربعاء وليس الثلاثاء! كيف نسيت لقاء يوم الإثنين؟ لقد كان الأسوء! ذلك المدير الحقيّر! مدير حقيّر... مدير... حقيّر... على قافية واحدة! ربما علي أن أصبح شاعراً! أجل..."

نظر إلى التلفاز للمرة الأولى وفجأة هرع إلى جهاز التحكم وهو يصيح:

"يا إلهي! إنها فرقة كوين تغني بوهيميان رابسودي علي أن أرفع في الصوت قليلاً، أو كثيراً - أردف هامساً وعلى وجهه ابتسامة خبت - أعشق هذه الأغنية! حتى إنني أملكها على هاتفي! أملكها على هاتفي... لماذا كل هذه الحماسة إذن؟ لا شيء يهم حقاً، الريح تهب على كل حال"



وقف مترقصاً وهو يدندن مع الأغنية وأقدم على المضي  
ثم توقف للحظة، نظر إلى قارورة الجاك دانيال:  
"ما زالت تحمل في داخل زجاجها القليل من الأمل لي، لي  
وحدّي"

تمتم على لحن الأغنية وهو يحملها كملك يحمل تاجه للمرة  
الأولى، استرق منها جرعة ومضى نحو المرحاض، أنزل سرواله دون  
أن يفتحه وأخذ يتبول في كل مكان وهو يترشف قارورته.  
ما إن أحس أنه انتهى حتى التفت إلى المرأة متعجباً، وضع  
القارورة بجانب الشفاط واتجه نحو المرأة المبقعة متميلاً، وضع  
كلتا يديه عليها وقال:

"هذا الشخص يشبهني كثيراً، ربما أنحف قليلاً، أو كثيراً  
-أردف هامساً بابتسامة خبث-... (صاح) هاي! أنت هناك!  
تشبهني كثيراً، لولا اصفرار وجهك ونحافته والعلامات الزرقاء تحت  
عينيك... وما خطب عينيك على كل حال؟ هل أنت مدمن مخدرات؟  
لن أخبر أحداً، أعدك... لكنك تبدو وسيماً جداً، مثلي. كأنك نسخة  
مني بعد عشر سنوات، عشر سنوات من السكر والعمل المضني  
والجوع والأمراض العقلية والنفسية. أنا أيضاً أشبهك من ناحية  
ما، أسكر وأجوع وأحمل من العقد والأمراض ما يجعلني أحياناً أكلّم  
نفسي، أذكر أنني تحدث يوماً مع المرأة، ههشش لا تخبر أحداً! ولكن  
من ناحية العمل المضني فأنا أبحث عنه منذ شهرين بعد أن طردت  
من عملي كمحاسب في شركة تافهة لبيع التراهاث لبعض الأغبياء،  
وذلك لاختلاسي بعض الأموال... انتظر لحظة أرجوك..."



عاد إلى المرحاض ليفتك جرعة أخرى من القارورة، ما إن أكمل الخطوتين اللازمتين للوصول حتى لاحظ أن سرواله يتدلى حتى ركبتيه، رفعه بخفة وجثا قليلاً ووضعاً خده على جانب المرحاض، تقياً قليلاً ثم قام أخذاً زجاجة الخمر يتجرع منها ما تبقى أسفلها ثم عاد إلى وضعه أمام المرأة وقال:

"صوت الموسيقى مرتفع جداً! أعتذر لك عم حصل هناك، أظن أنني أكلت شيئاً فاسداً... هل تصدق سيدي الكريم أنهم طردوني أنا، أفضل عامل، لأخذي بعض الأموال الزائدة عن مرتبي؟ هم يسرقون الناس على كل حال، ويعطون رواتب لمن يساعدهم في هذه العملية ومنهم أنا، ألا يمكنهم السماح لي بالتمرن على السرقة قليلاً مع شركتي قبل الخروج إلى العلن؟ والآن تلحقني تلك التهمة التافهة إلى كل شركة أحاول التقدم للعمل فيها... تم رفضي في ثمان وعشرين شركة حتى الآن، حتى الشركات الصغرى، حتى تلك الواقعة في ضواحي مونتريال. من حسن حظي أنهم لم يرفعوا بي قضيةً واكتفوا بطردني، ولكن النقود التي جمعتها طيلة سنتين خلال عملي شارفت على الانتهاء سيدي، وأنا أخذت قراراً لا رجعة فيه، إن لم أحصل على عمل في المرتين القادمتين اللتين أحاول فيهما الالتحاق بشركة مرموقة تقدر شهادتي العلمية وتتغاضى عن تاريخي الذي اختلست فيه بضعة مرات فإنني... يا للهول! هل تعلم أنك تشبهني كثيراً يا سيدي؟ لكنك تبدو أكبر مني بقليل، أو كثير..."



تمتم وهو يبتسم ابتسامة خبث، ثم جر نفسه نحو غرفته دون أن يودع المرأة.

دخل غرفته يدفع بقدميه ثيابه المتسخة الملقاة في كل مكان حتى وصل إلى سريره ذي اللون الأزرق الليلي الشاحب. نزع جواربه واقفاً وقربها من أنفه، فكر أن رائحتها ليست بذلك السوء، سيستطيع ارتدائها ليوم آخر.

"مدير حقير... سأصبح شاعراً، أنا أعرف مسك القلم جيداً! لماذا صوت التلفاز مرتفع جداً؟ لقد كنت أكتب كثيراً قبل أن آتي إلى هنا... تلك الرسالة الحاقدة التي كتبتها رغبتني العارمة في القدوم إلى كندا، أظنها مازالت موجودة في حساب الفايسبوك، سأقرؤها ربما، سأذكر كيف كان ذلك الولد الشقي الذي يحمل اسمي في ريعان شبابه، سأذكر نفسي لعلي أجدها بالذكرى، سأفتش عنها بين الكلمات ربما اشتاقت لي، ربما تود احتضاني، سأود أنا أيضاً أن أحضن نفسي بعد كل هذه السنوات التي قضيتها في غربة عنها، سأخفض في صوت الموسيقى..."

قفز بسرعة إلى خارج الغرفة حيث أغلق التلفاز بإصبع قدمه الأكبر، ثم عاد متبخرأً إلى سريره وجلس جلسته الاعتيادية، بنصف مؤخرة ونصف ظهر. أشعل سيجارة وأخذ هاتفه يقلب صور الفايسبوك القديمة، يتذكر أن تلك الخاطرة كانت مصحوبة بصورة. لم يبال بكل الذكريات التي كانت تعبر أمامه، لم ينظر حتى في عينيه ولا للأماكن التي التقط فيها المساحة في صورة.



كان كل همه هو تلك الخاطرة التي حملته على دفع كل ما لم يملك حتى يصل إلى هذا الحضيض. وبعد انتهاء السجارة بدقيقة وقعت عينه على صورة لعلم كندا، إنها الصورة التي كان يبحث عنها، تحمل تاريخاً مرت عليه عشر سنوات. عدل جلسته وصوته ثم أخذ يقرأ بصوت عال:

"لم أتصور أبداً أن الوقت سيمضي بهذه السرعة، لقد أصبحت كبيراً ومرهقاً لأستطيع تحقيق أحلامي، في الواقع لم يعد لأحلامي أي معنى، كل ما أستطيع فعله الآن هو خوض الحرب اليومية لإدخال الهواء إلى رئتيّ الهزيلتين، هواء يمكنني من العيش كأبي قط وكأبي حشرة وكأبي نبتة طفيليّة..."

لم يعد بإمكانني أن أودع حلمي، لقد أصبح خارج نطاق رؤيتي، حتى نظري ضعف كثيراً بسبب الساعات التي أمضيها وأنا أحرق فيه. حلمي الذي لم يعلمه إلا اثنان، أمي وأمي الثانية التي رحلت معه، حلمي التافه الذي لازمني منذ سن الخامسة حتى أصبح يفيقني من النوم لأعيش فيه، يأكل معي، يسهر معي، يقابل الأصحاب معي.

حلمي الذي تعرفت عليه بواسطة ابن خالتي في طريقنا إلى كارفور المرسى، لم يكن له دخل كبير في علاقتي بحلمي، كل ما فعله هو أنه رسمه أمامي بفرشاة لا تحمل اللون الأسود، كانت لوحته وردية وبيضاء كتب عليها بصوت أزرق سماوي كلمة لم تخرج أبداً من رأسي المتحجر، كلمة كندا.



منذ تلك اللحظة الغنية بالألوان أصبحت كلمة كندا هي العشيقي الوحيد الذي يراودني طيفه في كل مكان وزمان، يشدني إليه، ينهاني عن سواه، يبتّ في صدري النبض كلما قتلتي بلادي، يطمئنني عشيقتي ويربت على كتفي وهو يدعوني للصبر والتحمل حتى تبصقني بلادي المتعفنة خارج بطنها المتورم، كان عشيقتي السري ينفخ في وجهي عبير شتائه ويلقي على رقبتني بعضاً من ثلوجه كلما خنقتني رائحة بلادي وأحرقني لهيبها الذي لا يحمل معنى.

والآن ماذا؟ لا أحد سواي في هذا الأفق المنسي، لا أرى غيري مدفوناً في أنقاض هذا الخراب المسمّى بتونس الخضراء، أخجل أن أرفع رأسي لأنظر في عيونها هذه التونسي، ماذا أقول لها بعد أن خنتها مع وطن أرجو الانتماء إليه؟ هل أصارحها بكرهي لها؟ هل أخبرها أن حبي لها كان فقط تسديداً لديوني؟ ولكن لا دين لي عندها الآن، علبة السجائر أصبحت بخمسة دنانير وأكثر، من أين أجد لنفسي صبراً عليها هذه التونسي؟ هل ستغضب مني؟ هل سترميني ربما في حضان وطن آخر؟ ربما وطن يسمى كندا؟ ولكنني كبرت كثيراً عن هذا الحلم، أي معنى ستزقه لي كندا الآن؟ هل ستقبل بشيخ فاق العشرين من عمره؟ لا معنى لها بعد الثامنة عشر! هل أختار لنفسي مقهى تونسياً في مدينة تونسية يملؤه رجال تونسيون بأفكار تونسية وروائع تونسية وعيون تونسية؟ هل أجد لنفسي خرابة داخل هذه الخرابة لأعاقر فيها الحزن والوحدة حتى يقضي ربك أمره؟



أو ربما، ربما أتزوج امرأة تونسية بتقاليد تونسية ونعيش في بيت تونسي يسوده الخصام والإرهاق لأقضي أيام العطلة بين طبرقة التونسية والمنستير التونسية والمحاكم والتونسية وعدول التنفيذ التونسيين، لا يهم طلاقنا يا زوجتي التي لا أعرف اسمها أو إن كانت موجودة بعد، المهم هو ابننا، أكملتي حضانتها حتى يبلغ سن الكندا، أو ما يسمى هنا بسن الرشد، ثم سأرسله إلى كندا ليعيش، ربما سأشعر بالفخر والريوية بعد أن أبعث فيه الروح وأحيي عظامه وهي رميم."

أغمض عيني لهولة وراودته ذكرى عن نفسه وهو جالس في سن العاشرة إلى المائدة الصغيرة يتعشى برفقة والديه وإخوته، نظر إلى أمه ورأى صورتها تتلاشى، التفت مبتسماً إلى أخته فلم يجدها، لم يتكبد عناء النظر إلى أخيه الأكبر، وجه عيني نحو أخيه الصغير وأخذ يراقب أطرافه تتساقط كقطع الليغو، ثم لهولة رأى نفسه في سن العشرين يحدث أباه عن رغبته في الذهاب إلى كندا، لم يكن والده يستمع على أي حال، كان صوت التلفاز عالياً في خياله.

فتح عيني والابتسامة تملو محيّا ثم قال كالمخاطب نفسه:  
 "أيها الصغير، دعك من محاولاتك البائسة لإحياء واقعك،  
 تعلم أولاً كيف تقتل حلمك"



\*\*\*\*\*

رمى وسادته الباردة على الأرض وعانق دموعه، حدق في الحائط خلفه، شغل سورة الكهف في هاتفه وألقى السماعات على الطاولة المجاورة لسريره. دخل كهفه المسكون بالخيبة وتوقع هناك لربع ساعة. ثم استفاق من حيرته ونظر إلى ساعة الجدار، تذكر أن بطارياتها نفذت منذ أسبوعين، حاول فتح هاتفه لمعرفة الوقت ولكنه بدل ذلك ألقى نظرة سريعة على النافذة، لازالت السماء تحمل القليل من بقايا الشمس، إنه الوقت المناسب لإسكات الشيخ فارس عباد وقطع حديثه المطول عن نبين وسفينة وغلام وبيمين، والاتجاه إلى الحانة الكئيبة في آخر الشارع.

سحب نفسه خارج السرير وارتدى ما وقع عليه بصره من الثياب من تحت قدميه، أخذ معطفه المعلق على الباب الخارجي ومفاتيح البيت وخرج، تردد لوهلة حين شعر ببرودة الطقس وفكر في أخذ سيارته ولكن مفاتيحها كانت بعيدة مسافة مترين أو أكثر داخل المنزل، لذلك رضي بالمشي على ساقيه لاختصار الوقت والتحدث مع نفسه دون رقابة من إشارات المرور الصاخبة الألوان. أخذ يكسر خطواته على الرصيف ببعض الإيقاع وهو يتدمر من كل شيء ويسب كل ما يعترض طريقه نحو صحوته في البار. مرّ بجانبه بعض الشباب المتسكع الذين لاحظوا حركة شفاهه وزجّة حاجبيه، فصاح أحدهم:

"هاي! إذا كنت تشتاقيها إلى هذا الحد لماذا لا تكلمها؟"



قهقهه أصدقاؤه وأردف أحدهم:

"لماذا لا تجري إلى أمك وتبكي في حضنها؟ سيوفر علينا

ذلك رؤية هذا الوجه المشمئز"

لم يرمقهم حتى بنظرة واحدة، كأنه لم يسمعهم، ثم أخذ

يقول لنفسه بصوت مسموع:

"أنا لا أشتاق إلى حبيبة، لا أشتاق صديقاً أو صديقة، لا

أشتاق إلى أم أو أب... أنا أشتاق إلى القمح!"

رفع رأسه واقفاً وقرأ اسم البار كعادته ثم همّ بنزع معطفه

في طريقه إلى الدخول، احتضنه كما تحتضن فتاة في السادسة

دمية بعد حفلة شاي، وتوجّه إلى منضدة تقديم الشراب، قدّم

ابتساماً للساقي حتى يعلم بوجوده، وقبل أن يدرك وجد كأس الجعة

موضوعاً أمامه على المنضدة، ألقى ابتساماً ثانية على النادل

وأمال رأسه وهو يراقب الكأس بحيرة، وقبل أن يتجرّع منها ما يملأ

رأسه سكوناً ويسكت الضجيج الآتي من خلفه، قال يخاطبه:

"أنا لا أشتاق إلا إلى القمح... أنظر إليّ، أجلس على

منضدة الخمارة التي تبعد سنة ضوئية عن بيتي، وأسأل كأسِي:

هل هذه السنة لحساب الوقت أم المسافة؟ فتجيب: لا يهم، ففي

الحالين لقد أصبح القمح بعدها أصفرا، لقد تعدّيت المسافات ولم

يعد الشمال وطنك، تعديت الزمان ولم يعد الربيع فصلك... كم

يحزنك هذا الأبيض الثلجي ويرمي في قلبك الحنين إلى الأبيض

القمحي... لقد اصفرت السنابل من بعدك وأصبحت شامخة

متطلّعة رافعة رأسها تنتظر قدومك بفارغ الصبر.



على كل حال فإن الأرض جفّت، وتعلم القمح بعد رحيلك العيش بعيداً عن الماء والظل. ستتجرأ السنابل يوماً على ترك عروقها والخروج من التربة للبحث عنك. عندها ستعود إلى الشمال وتتساءل عن غيابها، ستبقى في ركن الخمارة التي تبعد سنة ضوئية عن غربتك، وتعلم أنها ماتت في طريقها للبحث عنك. ستبدأ يا صديقي في صنع غربتك في وطنك، وتعلم أن القمح وحده هو الوطن."

بدأ الضجيج من خلفه يعلو شيئاً فشيئاً، أخذ قدحه وأفرغه في جوفه دون أن يترك مجالاً لرتتيه لسحب ما تيسر من الهواء في الأثناء، ثم ضرب الكأس بقوة على المنضدة والتفت صائحاً:  
 "ما الذي يجري هنا؟ ألا يمكن لأحد أن ينعم بالهدوء حتى خلال الشرب؟ نحن هنا نحاول الابتعاد عن ضجيج الحياة وأنتم تمنعوننا حتى من إجراء حوار سريع مع الخمرة في هدوء يناسبها؟ ألا تقدرون الخمر؟ من هذا الذي كان يمزق دثار أحلامي بصوته المزعج؟"

سكت جميع من في الحانة والتفت بعضهم إلى بعض محاولين استيعاب الموقف، وكان النادل يمسح الكؤوس مبتسماً وهو ينتظر في لهفة إلى أين قد يؤدي هذا الحوار الأحادي. أراد أن يضفي بعض الحماسة حتى يجد لنفسه بعض التسلية مع الوقت الذي يكاد لا يمرّ عليه، فهمس خلف صديقه الثائر الباحث عن جو مناسب لموعده مع الجعة، وأشار بإصبعه:



"العم جورج، هو من كان يتحدث بصوت عال، كان يحدث الناس كعادته عن مغامرته مع الحياة..."

التفت إلى النادل وطلب منه قدحاً آخر ثم عاد يحدق في العم جورج:

- أنت إذن! ذلك الصوت القويّ المزعج كان يخرج من هذا الهيكل العظمي القصير؟ حدثنا إذن سيدي الكريم، ها قد خرست وأخرست خمرتي، حدثنا عن حياتك البائسة، هذا تخمين فقط، أظن أنها بائسة أليس كذلك؟ هيا انطلق، أطلق العنان للسانك الطويل، نحن في انتظارك ولا أحد سيقاطع ترهاتك...

- حقاً؟ تريد أن تسمعي أيها العربي؟ (قال العم جورج بعينين لامعتين كأنه مفترس ينتظر الانقضاض على الجميع بحكاياته عن الزمن الذي يريد لفظه خارجه منذ ولد)

- كيف عرفت أنني عربي؟ (أجاب وهو يحتسي القدر الثاني)

- كل من في الحانة يعرف عنك كل شيء تقريباً...

- حسناً عم جورج، لا أبالي، ماذا كنت تقول إذا؟

- أكمل خمرتك أولاً كي تسمع نفسك جيداً على لساني، صورة وجهك في قعر الكأس أجملُ منها بكثير على سطح المشروب.

- حسناً، ها قد أكملناه (قال بعد أن اغتصب معدته الخاوية بحمولة أخرى من السمّ الذهبيّ) والآن ستحدثنا؟ حدثنا يا عم جورج منذ البداية، منذ ولدت، أو يكفي أن تحدثنا عن يوم واحد من حياتك السخيفة حتى يعود كل منّا إلى عالمه، عالمي قد بدأ فعلاً يملّ من انتظاري...



- حين ولدت؟ رأيت انقسامي قبل أن أرى وجه أمي..  
 قطعت جبلي السريّ بأسناني؛ ربما أحتاجه لشنق مأساتي يوماً ما..  
 منذ ولدت عرفت بأن لي دوراً كبيراً في حياتي، فأنا  
 المخرج وأنا البطل الذي لا يموت أبداً...  
 أرى ظل الشمس على وشك الهلاك، ظل من أمامي وظل  
 من أمامي الآخر.. وجهان لي: وجه ماكر الملامح، ووجه يبدو عليه  
 النفاق واضح الأتعة...

هذا المساء، توسدت كفيّ كالعادة ونمت، لا لأحلم أنني  
 أحلم، ولكن لأجد متسعاً للذاكرة كي تذاكر فراغها: سطرأً من  
 هواء فسطراً من هباء فسطراً من هراء...

انسحب النسيم إلى شقتي الملقاة تحت الليل كالعاهر،  
 وعاشرني حتى أصبت بالغثيان. ولم أجد من الفجر - حين  
 غادرني - سوى دثاري الأبيض يفيقني على مهل ليلبسني، ويضع  
 ذراعه اليمنى على خصري إلى أن أسلمه كل ما لست أملك، وأوقع  
 له ملكية غربتي/ لا أعرف الكتابة! ولا بصمات لي! كل ما لم يكن  
 لي لن يكون لي...

سحبت جسدي نحو المرأة. وضعتها أمامي/وضعتني  
 أمامها. غسلت ضميري مرتين وتركتها فتبعني. صرنا ثلاثة: أنا  
 وأنا الآخر وبيننا المرأة...

أشاهد صور حيرتي على الجدار الضيق، أحتمي كوباً  
 فارغاً، أشعل سيجارة بشمس وبلور نظارات مجعّدة الوجه، أحمل  
 سكيناً وأكتب سطرين على قشر تفاحة: غريب تغربي!



فريد تفرّدي!.. فتجيبني الصحراء في غابات صدري:  
عجيب تعجبك! من منا -نحن الغرباء- جعل صدره مرتعاً لوطن أو  
لخريطة أو لشفاه امرأة؟...

غريب من يفتش عن وجودي...

طال سكوت العم جورج لثوان معدودة وأخذ يمتصّ الرغوة  
من على مشروبه الجديد، وساد معه سكوت عميق تبادل خلاله كل  
من في الخمارة -وكان عددهم لم يتجاوز العشرة- نظرات محطمة.  
أما عن ذلك الجالس على المنضدة، الذي أقتع العم جورج بالحديث،  
فقد وضع معطفه على الكرسي الملاصق وقام بخطوات بريئة تملأها  
الريبة نحو صاحب المونولوج الذي أسكن خوفاً وحيرة وسكينة في  
قلوب جميع المستمعين. اقترب منه وسط نظرات طامحة تتخللها  
أصوات وضع الكؤوس على الطاولات، وقال بصوت غليظ:

"أأنت أنا؟ لا تشبهني كثيراً ولكن كأننا خرجنا من رحم

واحد وعشنا في جسد واحد لمدة من الزمن."

بدأ الهمس يعلو حول الشاب ولكنه لم يأخذ نفساً صامتاً

ليراجع أفكاره وأكمل:

"ولكنّ جسدك هُرم بسرعة، ماذا فعلت به؟ كيف جرت

السنين عليك أسرع مما جرت عليّ؟ حتى إنني لم أغادر الأرض  
لأقتصد قليلاً من سنواتي، ولا تحركت مرة بسرعة الضوء... كيف

تعرف عني كل هذا؟"

لم يرفع العم جورج رأسه ولم يحوّل نظره من على مطفأة

السجائر على الطاولة:



- أنا أنا وأنت أنت...
- إذن كيف يمكن لحياتنا أن تكون واحدة؟
- تقصد أنك تضيع وتتعدم كلما فتشت عن وجودك؟
- ربما! ماذا عن ذلك؟
- ذلك حظ الفراشات التي تعيش في الصحراء
- ماذا عن السراب؟ ألا يحمل أمل الماء؟
- أمل الماء يكفي المسافر ويحُثّه على الوصول، نحن وصلنا وانتهى الأمر
- تعني أن السراب لا يحمل غيمة خيالية في جوفه؟
- لو كان السراب يعلم أن طيف الغيمة سيروي انتماءنا لكان حمله...
- بينما حلق العربي في السقف يحدق في غيابه، قاطع أحدهم صمته قائلاً:
- ما اسمك يا فتى؟
- متى؟
- حين تتعطل سيارتك في منتصف الطريق السريع عند منتصف الليل وينزل الثلج على حلمك بالوصول فتتجمد الألوان
- نادر... كلما لعنت قدرتي تذكرت أن اسمي نادر
- وماذا يعني اسمك؟
- يعني الشيء الذي يوجد منه القليل، أو الأقل من القليل
- ولكنك موجود في كل مكان
- ذلك ليس أنا، تلك لعنة ألقتها عليّ أمي عندما قبلتني



لأول مرّة وقالت: "سعادتك ستكون بوسع الدنيا"

- وهل تحقق دعاءها؟

- الرب كان يعد عشاءه حينها، وكان صوت الفرن عاليا

جدًّا فلم يسمعها

- وماذا يعني اسمك؟

- يعني السنين التي تقضيها الشجرة في تربية أوراقها وإرضاعها الصبر والشدة قبل أن يأتي الخريف وينفخ فيها لاهياً فتسقط جميعها قبل أن يدوسها على الرصيف سكير خرج لتوه من حانة كثيبة ضائعة كل من فيها فيلسوفٌ أعمى

- حسنا نادر، وماذا يعني اسمك؟

- لا أظن أنه يحمل أيّ معنى، هو فقط يحملني ويعلمني الإلتفات ورأئي لأرى الأشباح التي تتحاور مع ظلي بخصوص الطقس وفاتورة الماء...

وبينما هما كذلك إذ دخل غريب إلى الحانة، بيد و صغيرا في السن، ربما في الخامسة والعشرين، صغير جدا على أن ينظم إلى رواد هذه الخمارة العجوز. حتى نادر الذي وجد لنفسه مكانا بين من ولّى عليهم الدهر ولم يتجاوز الثلاثين كان يراقب الفتى يتسلل بين الطاومات متجها نحو المشرب، كان يحمل هو الثاني معطفا كحليا في حضنه بيد واحدة بينما تزور يده الأخرى شعره من حين إلى آخر تعدل قصته الذهبية.

حكّ عينيه قليلا ثم نظر إلى المعطف الموضوع على الكرسي أمام المشرب، هزّ كتفيه معبرا لنفسه عن لامبالاته وجلس



على الكرسي المجاور وطلب كأس وسكي، أو جرعة مضاعفة كما سماها .

صاح نادر:

"هاي! ألا ترى أن ذلك مكاني؟"

استدار الشاب ببطء ونظر في عيني مخاطبه ثم تحرك بلطف إلى المقعد المجاور قائلاً وهو يرفع يده:

"أنا آسف سيدي."

اقترب منه مبتسماً في مشية جانبية غريبة، وضع مرفقيه على المنضدة وقرب رأسه من الفتى كأنه يتشممه، ثم جلس على مقعده وقال:

- أنت مهذب كفاية... ما اسمك؟

- مارلون كوليني سيدي

- وكم سنك مارلون؟

- أربعة وعشرون سيدي

- إمم... أربعة وعشرون... وكم شهراً؟

- أرجو المعذرة؟

- أربعة وعشرون عاماً وكم شهراً؟

- ثلاثة سيدي... ثلاثة

التفت إلى أحد الجالسين في الخلف يسترقون السمع،

ضحك بصوت عال وقال:

"أيها النادل! ذلك السيد الكريم صاحب السروال الكاكي

والشارب المضحك سيدفع ثمن مشروبي، جهّز لي واحداً"



ثم أعاد رأسه إلى وضعها، قريبة بشكل مزعج من الشاب،

وقال:

"لقد وضعنا أنا وهو رهاناً بسيطاً عندما رأيناك تدخل،  
وكان رهاننا على سنك هل هو أقرب إلى الأربعة والعشرين أم  
الخمسة والعشرين. سمعت أحد الحمقى يقول اثنين وعشرين.  
أظنني فزت على كل حال..."

ابتسم الفتى بلطف دون أن ينبس ببنت شفة، بينما واصل  
العربي المخمور حديثه وقد بدا أن الزهو وجد طريقاً نحوه وأن تلك  
الأقداح المذهّبة لم تذهب سدى:

- إذن ما الذي أتى بشابٍ مثلك في هذا الوقت إلى حانة  
قدرة كهذه؟ - لا أقصد الإهانة يا نادل - ألا يجب أن تكون في البيت  
تدرس أو تترتاح لتمضي مبكراً إلى عملك؟  
- أجل...

- ولماذا تبدو شاحباً على أي حال؟ هل هو الحب؟ أجل  
هو الحب... اسمع يا عم جورج! عم جورج؟ هذا المكان ليس للنوم،  
اسمعي! هذا الفتى عاشق! أليس كذلك؟  
- ربما...

- هل خاصمتك؟ هل وجدتتها مع الخادم الأسود؟  
- لا أقصد الإهانة يا نادل - هل رمت بوجهك خاتم  
الخطوبة لأنه رخيص؟  
- لا...

- يا إلهي! ما شأنك يا فتى؟ لم لا تعطي إجابة كاملة؟



أحاول أن أفتح حواراً هنا! لم لا تتكلم؟

- لا أعرف ماذا أقول...

- تكذب! شكلك يوحي بأنك تعرف كل شيء...

- أنا من الأشخاص الذين يظن الجميع أنهم يملكون

إجابات لكل شيء. والسبب أنه بقدر ما نلوذ بالصمت نبدو أذكاء في نظر الآخرين.

- باولو كويلو

- ماذا قلت؟

- هذه المقولة سرقتها من كتاب باولو كويلو، رواية إحدى

عشر دقيقة

- لكن... آآ... كيف...

- هل أبدو لك أحماً؟

- تريد الصراحة؟

- أجل أريد الصراحة! وليس تلك التي تقول إنني أبدو

أحماً، وإلا تحطم رأسك بهذه الكأس ووجدت مخك فيه بدل الشراب... هيا صارحني

- لا تبدو... لا تبدو أحماً سيدي... تبدو... آآ... تبدو

ذكياً جداً

- شكراً جزيلاً هذا لطف منك

ابتسم الشاب وقد رأى عذوية وروح دعابة في نديمه،

شعر لوهلة براحة تدعوه إلى مناقشة أمر يقلقه، هذا هو السبب

الذي بنيت من أجله الخمارات؛ حتى يجد من ضاقت به الدنيا



وتركه أصدقاؤه رفقةً عابرةً تواسيه وتوسع أمامه أبواباً زائفةً كان قد فتحها الخمر. وضع كل ما في كأس الوسكي في فمه وابتلعه بصعوبة ثم نفح كالأفعى وضرب الكأس على الطاولة بسبب ما شعر من حرقة تسري في اتجاه معدته، أخرج سيجارة بسرعة من بنطاله دون أن يخرج العلبه وأصحابها بولاعة وأشعلها بشدة كأنه يحاول حرقها. أخذ سحبة عميقة ثم التفت إلى نادر متلعثماً في ملامحه وقال بهدوء:

- أبي طردني من البيت

- فليذهب إلى الجحيم هو وبيته!

- أرجو المعذرة؟ هه... فكرت في جميع الإجابات الممكنة

ولكني لم أر هذه قادمة...

- وهل تنتظر مني أن أسألك عن السبب وأبكي لحالك؟

تباً له! تعال معي إلى البيت، أملك كنبه، لا أظن أن النوم على كنبه

كبيرة سيقلقك

- ولكن سيدي... لا أعرف ماذا أقول... أنا حتى لم أطلب

منك أن... أنت لم تسألني حتى عن السبب... ولا تعرف... أنت لا

تعرفني حتى

- لا تبدو كقاتل متسلسل أو سارق، وماذا لو كنت كذلك؟

إذا أردت قتلي فذلك سيكون أعظم إنجاز في حياتك، سأخبر الله

أن يؤجرك عليه، ذلك السكين الذي ستظن أنك تزرعه في لحمي

لن يكون غير مفتاح تولجه في قيودي حتى تحررني من نفسي.

وماذا لو كنت سارقاً؟ ماذا ستسرق؟ تلفازي؟ هاتفني؟ لا أحتاجهم.



كنبتي الزرقاء؟ سأخذ قبولتي على الأرض. سيارتي؟ إن كنت تملك ثمن البنزين تفضل... أرجو فقط ألا تسرق الورود الموضوعه قرب الباب، لا أحتاجهم ولا أعلم إن كانوا هناك ولكن أريد أن أبدو رومنسياً أمامك...

ضحك الفتى ودهشةً تملو وجهه وتعلي حاجبيه، ثم تماسك ورد مبتسماً:

- سيكون من دواعي سروري أن أنام عندك إلى أن أجد مكاناً آخر أو أصالح أبي، أعدك لن أثقل عليك ولن أطيل بقائي.  
- خذني إلى البيت إذن، لا أشعر أنني بخير، وأحضر لنا عشاءً مناسباً...

وضع ثمن ثلاثة أقداح من الجعة وجرعة مضاعفة من الوسكي وخرج متكئاً على نديمه الجديد وهو يردد: "ما اسمك؟" دون أن يحضى بالإجابة التي ينشدها.

مرّاً في الطريق على مطعم صغير أخذنا منه قطعتي همبرغر ومضينا إلى البيت حيث لم يتكبد صاحبه عناء الشرح أو الجولة الاعتيادية لتوضيح مخطط البيت الصغير للزائر الغريب. ألقى بمعطفه على الأرض ونزع حذاءه ماشياً وارتقى على السرير في غرفته تاركاً ضيفه واقفاً على عتبة الباب.

دخل الضيف ولاحظ الكنبة الزرقاء، نزع ما ثقل من ملابسه وتمدد، أو تقوس كالجنين في مكان نومه الواسع تاركاً على الطاولة، التي تعج بأشياء لا فائدة منها، قطعتي همبرغر لم تخرجا بعد من ورقهما المقوى. ألقى نظرة على هاتفه ليعرف



الوقت ثم تنهد: "الساعة العاشرة فقط..." وأغمض عينيه لينام  
وسكينة مختلطة بفرح تكسوه بشكل مريب.

\*\*\*\*\*

كانت الشمس تطرق على شباك غرفته عندما رنَّ الهاتف  
معلنًا أنها الساعة السابعة، عليه أخذ حمّام سريع ليتخلّص من  
آثار الثملة وأن يأكل شيئاً ويرتدي لباساً لائقاً حتّى يلاقي أحد  
الموظّفين المهتمّين بتعيين آخرين جدد، وربما يكون مدير الشركة  
أو الكاتب العام. هذه الشركة جديدة وهي صاعدة بقوة في مجال  
الاتصالات ولا بد أنهم سيسعدون بوجود محاسب بشهادته العلميّة  
وخبرته بينهم، عليه ألا يفوّت الفرصة.

خرج مسرعاً باتجاه الحمّام ولكنه تسمّر للحظة عندما  
وجد شخصاً ما جالساً على كنبته المفضلة يراقبه بابتسامة بريئة.  
حدّق فيه وفكر قليلاً:

"ما الذي يفعله هذا الفتى في بيتي؟"

ثمّ تذكّر أنه أحضره البارحة لينام عنده، لم يشغل باله  
بتذكر السّبب، فقط ردّ التحية الصباحية وواصل في طريقه نحو  
الحمّام.

أخذ دشّاً سريعاً واعتصر بطنه قليلاً ليتخلّص ممّا يمكن  
أن يزعجه خلال اللقاء ثم خرج بفرشاة أسنانه في فمه متّجهاً  
نحو المطبخ حين سمع صوتاً يناديه فتسمّر ثانية في مكانه قبل أن  
يتذكر الفتى الذي كان قد أحضره من العانة وقد لاقاه للتوّ هنالك.



التفت متسائلاً ما الأمر...

- أردت أن أشكرك على استضافتي

- ليس الآن... ليس الآن...

- لقد قمتُ باكراً وحضرتُ الفطور بالفعل، أرجو أن تكون

من محبِّي الخبز المحمص ومعجون السّفرجل.

- حقاً؟ أرحمتي من عناء شديد...

- وقمتُ بترتيب المنزل.

ألقي نظرة عن كذب على غرفة الجلوس حيث كان الفتى

مستقراً على الكنبة وصاح متعجباً:

- الطاولة! نسيْتُ أنها بُنيّة!... سأشكرك لاحقاً. سأشطف

أسناني وعليّ الآن أن أردي حلتّي.

- حسناً أسرع، أعطني مفتاح السيارة حتى أشغلها وأدعّ

المحرك يسخن قليلاً

- إنه على الطاولة الطويلة قرب الباب حيث أعلّق معظفي

- رميته على الأرض البارحة... حسناً سأجده.

انتهى من تحضير نفسه كلياً للقاء وغادر المنزل وهو

يتلقّى توديعاً حاراً من الفتى الذي ظن أن صاحبه ذاهب إلى عمله.

أمّا الفتى فقد انتظره حتى غاب عن نظره، وضع يديه

في جيبه ودخل متمتماً: "كم هو لطيف هذا الرجل"... وتوجه نحو

غرفته يحاول إصلاح المنظر المريع الذي تلقّاه أول ما فتح الباب.

\*\*\*\*\*

حلت الساعة الثامنة وقد دخل طالب الشغل المصعد وبدأ بتحضير نفسه للمقابلة، أخذ النفس وورده موهماً نفسه بأن ذلك سيساعده بطريقة ما. وصل إلى الدّور العاشر وفي يده ملف يحمل كل تاريخه وكل ما كان وما يريد أن يكون وما يريد أن يوهم به المسؤولين لجعلهم يظنون أنه شخص كفاء يستحق ثقتهم. خطا خطوتين في الردهة ثم رفع رأسه ولاحظ الاكتظاظ هناك:

"كل هذه البديل هنا من أجل هذا العمل التافه؟ أنظر إلى تلك الوجوه الشاحبة المتماثلة! يا إلهي حتى بدلاتهم السوداء تبدو كأنها خرجت من بين يدي خياط واحد... أصحاب الشهادات العليا... الباحثون عن عمل... المحاسبون... كم هم مقرفون ومتشابهون، تكاد أعينهم تنطق بالكره تجاه كل من يجلس بينهم ويمثل منافسة لهم... ولكني واحد منهم! أنا أيضاً محاسب باحث عن عمل وهذه شهادتي العليا! على الأقل لا أكرههم لأنهم يمثلون منافسة، أكرههم فقط... لأنني أكره الناس..."

بحث لنفسه عن ركن يبعد قليلاً عن الضجيج المتأتي من تلك الرؤوس الفارغة والأجساد الخالية من أي لون، وبقي يقلب أفكاراً عشوائية في ذهنه وهو ينتظر دوره:

"كيف لي أن أعلم أن هذا الرواق ليس مسكوناً بالأشباح؟"



ماذا لو كان يعجّ بهم؟ لا نستطيع رؤيتهم على أي حال... ولكن يقال إننا نشعر بقشعريرة إذا مر شبح عبر أجسادنا! امم... مما يعني أن الأشباح أيضاً لا تتمكن من رؤيتنا، وإلا لما كانت لتعبر خلال جسد الواحد منا، خاصة جسدي! من يريد أن يرى هاتين الرثتين البشعتين اللتين تحملان في طياتهما جميع أنواع السجائر؟ أو هذا الكبد المتعفن من أثر الكحول؟ ثم كيف ستصل الأشباح إلى جوفي دون أن تعبر بملابسي أولاً؟ هل تستطيع تحمل رؤية شعر إبطي وعانتي؟ لنفترض أن الأشباح ترانا، هل تستطيع سماعنا؟ لا بد أنها تستمتع بحواراتي الصاخبة مع نفسي إذاً مارلون كولينبي... هذا هو اسمه على ما أظن... ذلك الشاب المؤدب الذي سمحت له دون قصد أن يمكث في بيتي، ربما لن أندم، سيخفف عن ظهري وطأة الوحدة وحملها الثقيل، أمل ذلك... هل يُسمح لي بالتدخين هنا؟ لن أتحمّل نظرات هؤلاء الأشرار لي كأني أسرق حقهم في التنفس... ترى أين ماكينة القهوة؟ ألف إلا خمسون، تسعمائة وخمسون دولاراً تبقّت لي من مدخراتي، هذه فرصتي ما قبل الأخيرة وعلي أن أحصل عليها وإلا... يا إلهي! أنظر إلى ساعة اليد التي يرتديها ذلك الحقير! لماذا يبحث عن عمل هنا ويضيّق علينا مساحة الوقوف إذا كان ماله يسمح له بشراء ساعة كهذه؟ نصف ساعة مضت حسب ساعتي البيولوجية، لم أعتقد أن المكان سيكون مليئاً هكذا، بل ظننت أنني سأدخل مباشرة، نصف ساعة ولم يدخل إلا ثلاثة، مازال ١، ٢، ٣، ٤ ونصف، مازال تسعة سيدخلون قبلي، لله ما أكثرهم..."



حلت الساعة العاشرة بالتوقيت البيولوجي لجسده وإذ به  
يسمع صوتاً رقيقاً ينادي:

"نادر عباس! أين نادر عباس؟"

رفع رأسه في نهم كمن فقد الأمل في عبور الصحراء  
وحين رفع رأسه يائساً من أعلى إحدى الكثبان وجد نفسه في نهر:

- أنا هنا! نادر! هنا...

- تفضل بالدخول سيدي.

- شكراً جزيلاً...

أطل برأسه من الباب ثم دخل بسلاسة وقدم التحية وهو  
يغلق الباب.

- مرحباً بك يا...

- نادر سيدي، اسمي نادر.

- إمام... اسم غريب.

- إنه عربي سيدي، أصلي من تونس.

- تفضل بالجلوس يا نادر... شمال إفريقيا إذاً؟

- أجل سيدي، وقد قدمت إلى هنا منذ ثماني سنوات

لأكمل دراستي.

- وعلام تحصلت في النهاية؟

- دكتوراة في المحاسبة، مكتوب في هذه السيرة وها هي

شهادتي.

- مكتوب هنا أنك كنت تعمل في شركة أخرى.



- أجل سيدي، أملك خبرة سنتين.
- وما الذي جعلك تغادرها؟ هل قاموا بطردك؟
- لا يجروؤون سيدي، أنا أفضل محاسب مرّ على تاريخ الشركة، ولكن تعددت المشاكل بيني وبين زملائي فقدمت استقالتي.
- فهمت... أعجبتني صراحتك وطلاقتك في الحديث.
- أشكرك على الإطراء سيدي.
- حسناً، أترك لنا هذا الملف وسنتصل بك لنُعلمك برأينا.
- أملك أيضاً شهادة في العلوم الاقتصادية والبنوك الدولية من بلدي، كما أستطيع التحدث بطلاقة بخمس...
- حسناً حسناً... سنتصل بك، تفضل الآن.
- شكراً سيدي سأكون في انتظار المكالمة.
- أغلق الباب وبدأ كل شيء ضبابياً أمامه، تردد على سمعه صدى "مايكل ديكنز"، إنه صوت السكريتيرة تنادي على مترشح آخر، على فرد آخر من القطيع البائس. تهاقت خطاه شيئاً فشيئاً وهو يدخل المصعد لوحده وأحس بضيق وهو يراقب الباب ينغلق بصمت ليجد نفسه في غرفة ضيقة مليئة بالمرايا، نظر إلى المرأة دون حتى أن يضغط على زر الطابق الأرضي وقال:
- "انظر إلى نفسك! انظر إلى خيبتك... (ابتلت عيناه بالدموع قليلاً واحمرّت خدوده وهو يردد) لا أطمع في حقيقة..."
- يكفيني سراب أجمل من هذا..."
- أحس بخفة نفسه بينما يهم المصعد بالنزول، أحس

بعدميَّته لوهلة قبل أن يفزعه ارتطام المصعد بالأرض، وكأنه سقط مرة أخرى من قمة حلمه اليوميّ ككل صباح... فتح المصعد وبدأ الناس يقذفون رؤوسهم داخله بتصنّع حتى يثبتوا لأنفسهم أنهم جيّدون بما فيه الكفاية حتى يسمحوا للنازل بالخروج قبل أن يدخلوا. أعاد جرن نفسه إلى خارج الشركة وهو يتمتم:

"على الأقل إن لم أكن في المستوى المطلوب لا تكن وقحاً معي يا سيدي! لا تطردني ولا تقاطع كلامي حتى تثبت لي أن وقتك من دولارات بينما وقتي من ثوان. تلك النظرات الوقحة التي رمقني بها، تلك اللكنة السيئة عمداً التي نطق بها اسم بلادي... لن أنتظرها من شركتكم سيدي الموقر، الانتظار لا يجدي. مارلون كوليني، ترى هل غادر المنزل؟ أرجو أن أجده هناك..."

ركب سيارته وأخذ يتدل في سياقتها ببطء كأن لا أحد سواه على الطريق. فتح الراديو وأخذ يغير المحطات الإذاعية دون أن يستمع حتى، ثم ما لبث أن أغلقه ووضع قرصاً مضغوطاً لفنانه المفضلة أنغام، على الأقل يشتم في صوتها بعضاً من عروبه وحنينه إلى وجوده. أخذ يلتفت يمناً ويسارا إلى المارّة دون أن يشغل ذهنه المتعب بأي فكرة، كان يراقب ملامح الحزن تكسو المترجلين ويعد في خطواتهم عدد الخيبات التي تعرضوا إليها اليوم.

السماء رمادية صافية من كل زرقة، أبواق السيارات الخافتة ومشاهد الوجع في كل العيون ورائحة الأحلام المتبخرة في كل مكان؛ شعر لوهلة أنه نيرون وأخذ يدندن في أرجاء سيارته ألحان الأغنية التي اختارتها له وهو يشاهد روما تحترق.



بعد ساعة ونصف أو ساعة وجد نفسه أمام بيته وقد أسكت المحرك، كان السكون مريباً ومريحاً في آن واحد، أشعل سيجارة وatakأ برأسه على الكرسي خالياً من أية فكرة لوهلة، وما إن أغمض عينيه حتى بدأ وحش الذكرى والأفكار والحنين إلى المستقبل والأحلام الواهية تتدفق إلى عقله وتجد طريقها إلى قلبه.

ماذا يفعل؟ ما الذي أوصله إلى هذه الحالة؟ لماذا غادر وطنه؟ من منهما كان يكره الآخر؟ ولماذا التجأ إلى كندا؟ من منهما يحب الآخر؟ لقد شعر بالرفض في وظيفة أخرى، مازال يملك فرصة واحدة... ثم لماذا قرر أن يحاول ثلاثين مرة فقط؟ لا يدري، هو فقط يحب اللعب بالأرقام وتقديسها. راودته أفكار لم تخطر بباله منذ سنوات؛ ألا توجد فتاة تملأ حياته ببعض... ببعض... أيًا كان ما تملأ به الفتاة حياة حبيبها... حبيبها؟ الحب! هذا هو... لماذا لا يعرف الحب؟ لماذا لم يجربه منذ وضع ساقه على أرض كندا؟ ألم يكن العاشق المثالي في فترة طفولته ومراهقته؟ ترى كيف حال حبيبته الأولى؟ كانت تلك المفضلة لديه بعد حبيبته الخامسة... ترى كيف حال أمه؟ سمينة كعادتها؟ لماذا خاصمته على أي حال؟ وكيف أبوه؟ هل أعجبه قبره؟ وإذا عاد إلى بيته في النصف الآخر من الكرة الأرضية، هل سيجد ترحيباً لائقاً أم ما لاقاه قبل عشر سنوات من إذلال وإهانة؟ تلك النقود التي أخرجته ليكمل دراسته في كندا، ربما كان بإمكانه أن يستثمر بها في مشروع في تونس يدرّ عليه المال الكافي الذي يمكنه من قضاء إجازة في كندا مع زوجته التي ربما كانت قبلت به في تونس. لماذا



لم تسلمه شركته إلى الشرطة عندما علموا بأنه يختلس أموالهم؟ ربما لأن هذا ما كان يفعله الجميع هناك، ولكنهم لا يريدون بينهم من بإمكانهم أن يمسكوه بجرمه، لو كان مجرماً كفاية ليتستّر عن جريمته كما فعل زملاؤه لما أصابه ما أصابه...

لما جلس مضطرباً في سيارته يشغل تفكيره بألامه الحالكة حتى لا يفكر في شراء قارورة وسكي أو الذهاب إلى الخمار في الصباح. لكن لا مانع من الشرب في مثل هذا الوقت، لا مانع من التعرف على النزيل، أو كما يود أن يسميه الصديق الجديد، وبدء الصداقة بقارورة توضح الخفايا ولا تترك مجالاً للزيف أو الكذب. دخل البيت ونظر حوله وهو يشعر لأول مرة أنه يتوقع أن يجد شيئاً مهماً، ذلك الشعور الذي ينتاب الوحيد إذا وجد شخصاً ينتظره، لم تقع عينه على ما يرضيه. توجه إلى غرفته وقد غمرته راحة فجائية غريبة عندما رآها مرتبة كما لم يسبق له أن عهدها. نزع حذاءه واستلقى على ظهره فاتحاً ذراعيه على عرض السرير كأنه يستعد لاحتضان وحدته التي فارقتة لعدة دقائق في الصباح. "وماذا كنت أنتظر؟ (قال في نفسه) هذا الشخص لا يعرفني حتى، لماذا يخونني عقلي بأن أتوقع وجوده في انتظاري؟ ألهذا الحد أنا منفيّ ووحيد لأتمسك بأول حبل يعترض طريقي في طرفه الثاني صديق مزعوم؟ مثل لافتة صدئة على حافة الطريق، كل علاقاتي عابرة... (أخذ نفساً عميقاً ثم أردف كأنه يصيح) لا أريد خمراً! لا أريد أن أسكر..."

"سيدي! لقد عدت بسرعة!"



سمع صوتاً مألوفاً يقترب ويفتح الباب:

- لم أسمعك تدخل... لقد كنت في المرحاض ولم أتوقع  
مجيئك باكراً...

- مارلون! ما زلت هنا؟

- أنا آسف، هل كنت تتوقع مغادرتي؟ حسناً، إن الوقت مناسب

لأبدأ رحلة البحث عن عمل

- عمل؟ وهل تتوقع الحصول على عمل في يوم؟ إلا إذا كانت

نيتك العمل في مكدونالدز

- لا يهم، ما زال في حوزتي من المال ما يسمح لي بالبقاء في

نزل لبعض الوقت، صحبتك البارحة فقط لأنني أردت أن أجرب شيئاً

جديداً، شيئاً فيه نسبة من الخطورة، من يدري؟ لعلك كنت تتوي

قتلي حين قبلت بقدمي للمبيت عندك.

- تعال، تفضل بالجلوس قربي... وهل تريد الموت؟

- لا أدري... على الأقل أعرف أنني لا أريد الحياة؛ ربما لذلك

أدخن بشراهة

- لا وقت لديك، موتك بعيد جداً، عليك أن تلحق به بأسرع ما

يمكن... السجائر وحدها لا تكفي، عليك ببعض الاكثاب، سيساعدك

على التخلص من عائق الحياة...

- عندي ما يكفي من اليأس.

- ماذا تنتظر إذن لتموت؟

- عندي ما يكفي من الأمل لأحيا.

- فعلاً، تحتاج بحراً من اليأس لتموت وتكفي قطرة أمل لتحيا.



- هل تعرف الرب؟
  - أعرف عنه الكثير...
  - حدثني عنه.
  - قلت إنك تملك ما يكفي من المال لتبقى في نزلٍ لأيام.
  - أجل، ما يكفي لأسبوع ربما، بالإضافة إلى ما يسكت جوعي للطعام والسجائر.
  - تريد أن تبقى في منزلي؟
  - أود ذلك! سيكون من اللطف أن تحتلني ضيفاً، أعدك أني لن أطيل مكوثي ولن أنسى معروفك أبداً.
  - أريد نصف ما تملك من مال.
  - هو في محفظتي على الكنبة، سأأتي به حالاً.
  - لا لا! خذ محفظتك واذهب بها إلى محل تجاري، اشتر بثلاثة أعشار المال كحولاً وبعشرية طعاماً، واحتفظ بالنصف المتبقي.
  - حالاً.
- خرج مارلون من الغرفة مسرعاً وأخذ محفظته وغادر البيت والابتسامة لم تغادر وجهه، وقف قليلاً أمام الباب متسائلاً أيّ الاتجاهين سيختار، هو لا يعرف هذا الحي ولا يعرف ما الذي أتى به إليه البارحة بعدما خرج مطروداً من بيته وقرّر المشي إلى أن تمل سيقانه. في النهاية استقر رأيه على الاتجاه إلى اليمين، الطريق الذي أتى عبره من الحانة. بدأت الشمس تطل عليه من بين السحب وهو يراقب الابتسامات ترمى نحوه في الشارع من الجهتين ويستمتع



إلى رنين السيارات العابرة، شيء ما كان يجعل ذلك الرنين عذباً، شيء ما غريب جعله يشعر بأن القطة المتكئة على جدار أحد الأسوار كانت تغني له وتدعوه للغناء معها بلغته البشرية.

"قد يرميك الرب أحياناً بشخص في أحلك الليالي ليبشرك بصبح قادم، لأنه مصباح يساعدي على معرفة السبيل الذي سأختره. لا أعلم لماذا شعرت براحة كبيرة معه، طريقة حديثه المليئة بالثقة كأنه يعرف جميع أسرار الكون تسحرنني ببساطة. قد يشعر الواحد منا أحياناً أنه يعرف الشخص الذي التقى به منذ دقيقة لألف عام. ولكنه غامض، لا يريد أن يدلي بشيء عن نفسه، لماذا أثق به؟ يبدو أنه يعاني من مشاكل ما خلق لمثلها. وكأنه يحمل جبلاً على كتفيه... ربما أستطيع مساعدته على تخطيتها كما يفعل معي هو الآن... وماذا لو كان يستغل ما أملك من نقود؛ أن أشتري صديقاً خيراً عندي من غرفة وطعام أشاركهما مع الأشباح والصقيع..."

كان يمشي ويتفقد لافتات المحلات إلى أن اعترضه محل لبيع الكحول، دخل بوجه مشرق وهو يسمع حسيس القوارير تناديه وتصفر له، حتى إنه رأى قارورة ياغرمبايستر تعري له فخذها وتغمزه...

أخذ ما أخذ من الأنواع الرخيصة التي لم تشغل بالها حتى ياغرائه وسار بها إلى الكاشيير الذي لم يكن موجوداً، انتظر لوهلة وهو يوزع الابتسامات على الأروقة التي يشع فيها الخمر إلى أن جاءت فتاة تبدو في بداية عشريناتها، وقفت تشاهده صامته



لثانيتين تفحصت خلالهما جميع ملامحه الجانبية ومقومات جسده ثم حممت برقة:

- آه أنت هنا !

- آسفة، لقد انشغلت قليلاً ولم أشعر بدخول أحد.

- كان بإمكانني أن أحمل ما أشاء وأرحل إذاً.

- لكنك لم تفعل.

- تخيلت رجلاً ضخماً يحمل بندقية وراء المنضدة، لو

كنت أعلم أنها فتاة جميلة لخرجت .

- إمام، سيعثر عليك عمي بمساعدة كامرات المراقبة،

ولن يخبر الشرطة، سيضطر للبحث عنك لوحده حتى يستطيع فتح

أمعائك واستخراج جميع كحوله التي شربتها.

- وما شأن عمك؟ هو صاحب المحل؟

-أجل، أنا هنا للمساعدة فقط وأخذ نصف الأجر مقابل

عمل ساعة، أكره هذا العمل... لا أدري لماذا أخبرك بهذا على أي

حال...

- لا أدري ما المانع... ولكن جمالك وطريقتك العذبة في

الحديث لا توحى أبداً بأن لك عملاً قادراً على استخراج الكحول من

بطون زبائنه باستعمال سكين...

- فأس... يستخدم فأساً... أرجو ألا يراك الآن تغازلني

حتى لا يضطر لاستخدامه.

- لست أغازلك، أنا أصف فقط ما رأيته، لم يسبق لي أن

رأيت بمثل جمالك.



- شكراً... (تجيب وعيناها إلى الأرض وحمرة طفيفة بدأت تعلقو خديها)

فكر قليلاً ثم تردد، هل يسألها عن رقم هاتفها أم عن إمكانية وجود عمل له بهذا المحل؟ حك مؤخرة رأسه بلطف ثم قال متلعثماً:

- ما رأيك بشاب مثلي؟ أعني... لقد صارحتك برأيي فيك.

- إمم... حسناً، تبدو... تبدو... مفلساً؟

- هل هذا واضح إلى هذه الدرجة؟ (أجاب مقهقهاً)

- أعني... بغض النظر عن تسريحة شعرك، ما اشترت به كل هذه الجعة الرخيصة كان بإمكانك أن تشتري به نبذاً جيداً أو وسكي. يبدو أنك تريد أن تسكر إلى أبعد حد بأقل خسائر مادية.  
- تملكين شيئاً من الحذاقة، ولكن ألم تفكري في احتمال أن يكون لدي أصدقاء في البيت ويلزمنا الكثير من الجعة؟ ثم ما العيب في شعري؟

- إذن أنت تدعو أصدقاءك لشرب الجعة في صباح يوم الأربعاء؟ شعرك... لا أدري...

جذاب بهذه الفوضى إلى حد ما...

- ما رأيك يا متحاذقة أن يدعوك شاب مفلس بشعر فوضوي يسكر في في صبيحة الأربعاء إلى العشاء؟  
- عشاء؟ لم أرك في حياتي إلا منذ دقائق عندما دخلت المحل، لا أعرف حتى اسمك.



- كنت أعلم أنك تراقبين من الداخل ما تصوره الكاميرا...  
اسمي مارلون، مارلون كوليني. هل أنت موافقة؟
- وما الغاية من هذا العشاء؟
- ليست الصداقة طبعاً! ربما أشعر بالانجذاب إليك.
- أنت صريح فعلاً.
- وربما أتحايل عليك حتى تجدي لي عملاً في محل عمك  
قاطع الأمعاء.
- لمَ لم تقل هذا منذ البداية؟ دون أن تكلف نفسك ثمن  
عشاء.
- لأنني أريد حقاً أن أخرج معك.
- حسناً حسناً، عليك أن تنتظرنني على الساعة الثامنة  
أمام المحل.
- أجل! (قال بصوت عال وقد أشرقت ملامحه) سأكون  
في انتظارك...
- تبادل الغريبان ابتسامة مليئة بما لم يفهمانه، وبعد أن  
طال الصمت هم مارلون بالخروج وهو يلوّح بيده كأنه جندي يودّع  
أمه قبل خوض معركته الأخيرة، وما إن خطا خطوة خارج المحل  
حتى سمع صوتها اللذيذ ينادي:
- "سيد مارلون! ألن تأخذ كحولك؟"
- حكّ مؤخرة رأسه مجدداً وعاد بابتسامة خجل مركزاً  
عينيه على محفظة نقوده، وضع ثمن ما اشتراه على المنضدة وردد  
هامساً:



- الثامنة إذن، الساعة الثامنة مساء... سأكون هناك أمام المحل في انتظارك.
- ألا تريد أن تعرف اسمي على الأقل؟
- اسمك؟ أه أجل! نعم نعم اسمك... ما اسمك؟
- ماري كولن.
- ماري كولن... اسم جميل كصاحبه.
- كفى مجاملة... امتلأ المحل بالزبائن، كما أن "أصحابك" في انتظار الكحول.
- أه حسناً... الثامنة إذن... إلى اللقاء.

خرج يقهقه مسهب النظرات كأن شيئاً خفياً يدغدغه. دخل متجراً صغيراً، أخذ منه بعض الطعام دون أن يبالي حتى بما اشتراه ولا بثمنه، ثم عاد إلى البيت مترنماً محيياً كل ما يعترض طريقه. رنّ الجرس ووقف يضحك حتى فتح له صاحب المنزل الباب.

ثمان عشرة قارورة جعة وأربعة أقدام على الطاولة، تبادل الشبان نظرات صامته ثم أعادا توجيه عيونهما نحو القوارير، وما قطع السكوت إلا قول نادر:

- لماذا تبدو سعيداً جداً؟ ألا يجدر أن يحزنك أني قمت باستغلاك؟

- لا لا أبداً! هذا رد جميل، وما تفعله معي أغلى من النقود... ثم إنني رأيت اليوم أجمل فتاة في كندا...



- لا شيء أغلى من النقود...
- لم أتردد في الحديث معها، وقد كانت أكثر رقة مما يبدو عليها من الوهلة الأولى.
- كان باستطاعتك أن تجد شقة أو غرفة في نزل بثمان الخمر الذي ملأت به ثلاجتي وطاولتي...
- لقد اتفقت معها على موعد.
- أنت لم تشتري كنية تمام عليها بتلك النقود، بل ظننت أنك ستشتري بها صديقاً...
- سألاقيها على الساعة الثامنة اليوم حتى أخذها للعشاء.
- كما عهد والدك أن يشتريك بنقوده الكثيرة حتى تعودت على شراء الأصدقاء بها...
- وربما أجد لنفسني عملاً في محل بيع الخمر الذي تعمل فيه.
- لكنني أقبل أن تشتريني بالنقود، لو لم تفعل لحاولت أنا شراءك...
- لماذا لا تريد أن تستمع لي؟
- أعطني قارورة.
- هل مغامرتي وسعادتي تافهتان لهذا الحد بالنسبة لك؟
- ولماذا أبالي بسعادتك؟ لم أعرفك إلا البارحة! أعطني قارورة من فضلك.
- تفضل...
- لماذا انقطعت عن الحديث عن صديقتك الجديدة؟



- لأنك لا تبالي؟
- فعلاً لا أبالي... هل حدثتها عني؟
- لماذا أحدثها عنك في أول لقاء؟
- لماذا تحدثني عنها في أول لقاء؟ فلنشرب أولاً وحاول أن تصمت قليلاً.

أخذ الشابان يُبَيِّن الخمر كجَمَلين لم يشربا منذ شهر وقد أرهقهما لعب الصحراء بهما. وصل نادر إلى القارورة السادسة بينما مارلون يفتح الرابعة، وكل ما كان يدور بينهما كان نظرات متقطعة يتخللها الصمت. إلى أن أرجع نادر رأسه على الكنبة وقال:

- لماذا لا تتكلم؟
- أخبرتني إنك تريد مني أن أصمت.
- لماذا صدقتني؟
- هل أتكلم إذا؟
- الآن بإمكانني الاستماع لك كأنني أهتم...
- حقاً؟! لقد التقيت فتاة في...
- لقد سمعت ذلك، لماذا تعيده؟
- لأنك أصبحت تهتم بسماعه الآن.
- لن أهتم... بهمني أن أعرف مشكلتك، سبب طردك من البيت...

- أه، لا شيء... أبي طردني لأنه وجدني أتعاطى القنب في غرفة نومي، لا شيء مهم.

- تتعاطى القنب؟ هل تستطيع أن تجلب لي بعضاً؟
- طبعاً! لكنني على شفير الإفلاس التام، أعدك بإحضاره



عندما أحصل على عمل في محل الخمر.

- ( يشعل سيجارة وبيتسم )

- هل تتذكر ما سألتك هذا الصباح سيدي؟

- ماذا تعرف عن الرب...

- آه ما زلت تتذكر إذا؟

- أجل ولكن لا أحيذ الحديث عنه إلا بعد أن أثمل...

حلّت الساعة الثانية بعد الظهر، كان كل شيء في ظاهره وباطنه هادئاً، حتى نادر... ولكن مارلون كان مضطرباً، كل الأسئلة العديدة التي يحملها في رأسه كانت بادية على ملامحه، ومما جعله أكثر اضطراباً كان هدوء جليسه الذي كان واضحاً من خلال عينيه أن لا شيء يشغل باله. أطفأ السيجارة وأخذ جرعة من الجعة ثم التفت إلى صاحبه وقال بهدوء:

- عن أي رب تتحدث؟

- لا أعلم... الرب.

- هل تعلم؟ أنا ولدت وتربيت مسلماً، ولكن إسلامي كان

نتيجة لنشأتي حيث أن جميع من عرفتهم كانوا مسلمين... ولكني كبرت وتعلمت كيف أفكر دون مساعدة من أحد، واخترت ديناً مناسباً لي، ديناً عرفت وحدي أنه الدين الصحيح...

- أي دين هذا؟ أنا متشوق لمعرفة، أظن أنك ذكي كفاية

حتى تعرف الدين الصحيح.

- الإسلام، الإسلام كان اختياري، اعتنقته ثانية.

- حقاً؟ وكيف ذلك؟



- هل تدري يا صديقي الصغير كم نملك من رب في الإسلام؟

- رباً واحداً يسمى الله... قرأت عنه شيئاً أو اثنين.

- وهل تعرف ماهو؟ ولماذا اخترته؟

- أخبرني...

- اخترته لأنني لا أراه، أنا أصدق الأشياء التي لا أراها أكثر من تلك التي بإمكان نظري الوقوع عليها. لا أصدق فعلاً أنك هنا جالس معي، ولكنني أصدق أنه في مكان ما، في كون مواز ربما، أنا جالس في بيتي أشرب الخمر وأدخن بصحبة أحد ما، الفرق أنني في ذلك الكون حي تماماً...

- أنت تؤمن بتوازي الأكوان؟ وهل يتوافق مع دينكم؟

- ديننا؟ لا لا! ديني أنا، ديني أنا وحدي... إسلامي ليس الذي تعلمناه في المدارس أو البيت، إسلامي يتوافق مع ذلك في بعض الركائز والأساسيات فقط، مثل وجود الله واسمه ووجود رجل في وقت ما يسمع كلام الله ويعيده على أسماع أصحابه، القرآن أعني، ذلك الكتاب العبقري...

- وما هو الله؟ كيف يبدو؟

- مثلي... لا أراه إلا في المرأة، لا أسمعه إلا عندما أتكلم،

لا أشعر به إلا عندما أحب...

- تحب... إذا الله هو الحب، ولا يشعر به إلا المحب، هذا

أفهمه... ولكن ما لا أفهمه هو كيف تراه في المرأة...



- وجب عليك أن تقول عكس هذا... أنا أرى الله في نفسي  
لأنني أرى في الله نفسي، وهذا مفهوم... أما العصي على الفهم فهو  
الحب... الله ليس معنى من معاني الحب، الله هو الحب، وأنا أحبه  
عندما أحب نفسي وأحب نفسي عندما أحبه... يحدث أحياناً أن  
يكره أحدهم أن يحب، ولكن هل يعد كره الحب كرهاً للرب؟ هذا  
ما لا أفهمه.

- ما الذي يجعل الإنسان يكره نفسه؟ مشاكله في الحياة؟  
ما يواجهه من مصاعب؟ سقوطه إلى حضيض لا يرى قعره؟ ملله  
من حب نفسه؟ فقدانه على قدرة الحب؟ انشغال الرب بتحضير  
عشائه؟ انتهاء مخزون الخمر والسجائر؟

- الطقس! الطقس وحده يملك القدرة على تغيير المزاج  
وتحويل الحب إلى كره...

- طقس النفس تعني، تلك العواصف التي تهب على الروح  
فتأخذ في طريقها كل داع للحياة

- لا لا لا تتفلسف! أعني الطقس الخارجي... ولدت  
كارها للبرد، وكلما اشتد الأخير وجدت نفسي كارها لكل شيء في  
حضوره...

- إذن لماذا اخترت العيش في كندا؟  
- لوعد قطعته على نفسي وعاهدت عليه حتماً راودني  
وراودته.

- وهل تَمَثَّل حقيقة؟

- أجل، رأيتَه بكل ألوانه جَلِيًّا...



- يالأسف... أنت تحبذ الأشياء التي لا تراها، ولا تصدق ما تستطيع إدراكه بحواسك.
- بدأت تفهمني... كم قارورة شربت؟
- ستة.
- كيفيك هذا القدر... يجب ألا تسكر قبل لقاء أنستك.
- معك حق... ماذا عنك؟ أأست معجباً بإحداهن؟
- بلى... المرأة...
- أقصد سييدة.
- سييدة؟ بلى، سترها عندما أعرفك وتعرفني حق المعرفة، اسمها سارة.
- سأنتظر على أحرّ من لهفتي وأنا أنتظر لمعرفتها... وهل تحبها؟
- ولماذا أحبها؟
- لكي يتمثل الرب فيك! أتدري سيدي؟ لقد خلق الرب العديد من الكائنات، منهم الإنسان... وكان الإنسان بين الكائنات يمتاز بشيمة الغباء، إذ أنه يقع في الحب أحياناً.
- ولماذا أجعل نفسي غيبياً؟ لماذا أراضى ألا أكون مختلفاً؟
- لأن غباء الحب سيدي غباء جميل، أو جمال غبي، وإن جمال الحب في غبائه، وإن غباء الحب في جماله.
- لا أريد أن أكون غيبياً ولا جميلاً، يكفي أنني أنا.
- وهل يمكنك أن تصف لي سارة؟
- منذ سنوات وأنا أحاول وصفها لنفسي ولم أستطع.



- كيف تحاول وصفها؟

أخذ جرعتين أنهى بهما قارورته التاسعة، أشعل سيجارة واستند برأسه على مؤخرة الكنبة. وجه عينيه نحو صديقه مارلون الذي كان متحمساً لسماع وصف عميق من نديمه الفيلسوف الذي يجيد -من حسن حظه- التكلم بلغة الخمر... وسَّع عينيه وقال:

"أضع ورقة بيضاء وقلماً أزرقاً على طاولة من حيرتي، أفكر، أحكّ رأسي قليلاً، لا يُصدر صوتاً جديراً بالتفاتتي، أحكه أقوى فتسقط شعرتان على الورقة..."

يفتالني قلق أزرق اللون مخطّط، أحرك إصبعي على الورقة

فتنتقل العدوى...

- ثم ماذا؟ (تقول الورقة).

- لا أعلم شيئاً ولا شيء يعلمني.

- ماذا ستكتب؟

- ما تملي علي الذاكرة البيضاء وصوت والليل.

- أكتب "هي" (تصرخ الورقة).

أكتب: هي قدر قصير القامة يتناول على الوجود بجميع

معانيه، هي لحن بارد يُلقى صيفاً على كل من تعلم الإصغاء لشعره،

هي حرف حديث العهد بوجوده، أصغر من جميع إخوته، حرف

يكتب نفسه قبل كل همزة وبعد كل ياء.

- إذن أنت تعرفها! (يقول القلم).

- ربما أعرف عنها شيئاً أو بليون شيء.

- كيف ترسمها؟

أرسم: عينان لا لون لهما، بين قوس شيطاني يطل على



السماء وقدماه ثابتان بين قرني وعل بري... فم هو البحر أو ظله.  
ثم أسأل: هل للبحر ظل؟ وهل هو أزرق أو رمادي كمعظفي؟  
أثقفد معظفي الرمادي وأخذ ولاعة وسيجارتين، تقول  
السيجارة الأولى للثانية:

"سنكمل حديثنا في مطفأة السجائر أو تحت ذلك الحذاء"  
تجيب السيجارة الثانية بالصمت... أشعل صمتها في  
صمت والحائط الأبيض المبقع ببقايا الذباب الميت يصيح:

- تذكرني جمرة السيجارة المطفأة بعلمتها.  
- هل رأيتها؟ (يسأله صمتي).  
- سمعت خطاها مرة أو اثنتين.  
- والثالثة؟  
- سمعتها تفتح الثلجة لتعيد مجد ما سقط منها من  
رمان وسفرجل.

- الوصف كامل إذاً...  
تضحك القهوة في سوادها وتتمتم:  
لو أخذت رشفة مني لرأيتهما تدخل عليك الآن من باب  
المنزل حتى وإن كان باب الذكرى موصداً..."

يطول الصمت بين الصديقين وأحدهما يراقب الآخر يطفئ  
سيجارتته وقد غصت رمشة في عينيه بدمعة تائهة. يتلعثم قليلاً ثم  
يحمم ويقول كالهامس:  
- ليس حقيقياً ما تقول...



- كيف أدركت؟
- الحقيقة تحتاج نقصاناً، وما تقوله أوضح من أن يرى.
- كالحب... كالله...
- الآن فقط فهمتُ كل شيء! ولكن بالمناسبة، هل أنت شاعر؟

- أجل، هل تريد سماع قصيدة كتبتها بالأمس؟
- حقاً؟! سيسعدني ذلك.
- مدير... حقير...
- ثم ماذا؟ فقط؟
- أجل فقط! وهل تعرف أنت الشعر؟
- أنا إنسان! كل إنسان شاعر... حتى وإن لم تخضع له قافية...

- ما رأيك يا شاعر أن نأكل شيئاً؟ تعبت من مضغ الكلام الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع.
- يدخل مارلون إلى المطبخ ليعود بعد ربع ساعة ببعض البيض والجبن والخبز، يأكلان في صمت لذيذ على الطرفين ثم يتجه نادر إلى غرفته ليستلقي مستمعاً إلى بعض أغانيه المفضلة ويترك لزميله في السكن حيزاً حتى يحضر نفسه للعشاء مع صديقه الجديدة.

\*\*\*\*\*

- عند حلول الساعة الثامنة كان مارلون واقفاً أمام محل الخمر يعدل ربطة عنقه منتظراً صديقه التي لم تتأخر...



اتفقا على مطعم قريب لا يعرفه ومضى بها. لم يُتم عقرب  
الدقائق ربع دورة حتى وجدا نفسيهما جالسين متقابلين على طاولة  
مطعم متواضع.

هدأ صوت السيارات وذهب النادل بطلييته إلى المطبخ  
وساد السكوت بين الشابين، صمت غريب ممتزج بخجل أراد الولد  
أن يكسره ببعض الكلمات التي تعبر عن شهامته وتقلل من وطأة  
الحشمة بينهما:

- أحب هذه الأغنية.
- شارل أزنافور، من أفضل ما أنجبت فرنسا.
- تحبين الأغاني الفرنسية إذاً؟
- نشأت وأنا أستمع إليها.
- نادراً ما تجدين الآن شخصاً في سنك يستمع إلى مثل  
هذه الأغاني القديمة.
- لست صغيرة إلى ذلك الحد.
- هل سأكون فظاً لو سألت عن عمرك؟
- واحد وعشرون.
- أنت طالبة إذاً؟
- أدرس هنا في منتريال علم النفس.
- أه! أعرف شيئاً أو اثنين عن علم النفس.
- يبدو ذلك من تسريحة شعرك... في النهاية لم يكن  
متروكاً لفوضاه هذا الصباح، هذا أفضل ما يمكنك فعله.



- (يضحك) لقد حاولت أن أجعله مناسباً قدر المستطاع.
- يعجبني هكذا، يبدو جميلاً، أخبرتك بهذا سابقاً.
- أردت أن أسمعها مجدداً... ولكن... إذا كنت توفرين مصاريف الجامعة، لماذا تعملين بنصف الأجر عند عمك؟
- عمي؟ (تتعجب ثم تستدرِك) أه! لا أملك عمًا، تلك كانت كذبة حتى أخيفك قليلاً.
- وقد نجحت خطتك! إذن من هو صاحبه؟
- تركه لنا - أنا وأمي - والدي قبل أن يرحل إلى مثواه الأخير.
- أنا آسف لسماع هذا.
- لا عليك، وافته المنية وأنا في الرابعة من عمري، لا أذكر من ملامحه الكثير على أي حال.
- وهل العمل متعب هناك؟ أعني... الدراسة والعمل بدوام شبه كامل...
- إن كنت تحاول التوصل إلى رأيي في إمكانية حصولك على عمل معي فأنا وافقت منذ الصباح.
- حقاً؟ يا إلهي! وافقت على... إحم... وما هو تخصصك في الدراسة؟
- لا تحاول أن تخفي سعادتك! كما أنني أخبرتك إنني طالبة في علم النفس... وماذا تدرس أنت؟
- أنهيت دراستي، أدب وحضارات عالمية.
- أوه، جميل جداً! ولماذا لا تعمل؟



- ماذا بإمكان شاعر أن يعمل غير بائع خمور مع أنسة غاية في الجمال مثلك؟ تلك طموحي...
- أنت شاعر؟ يا إلهي كم هذا رومنتيقي ورائع! هل يمكنك أن تسمعني قصيدة؟
- هذه قصيدة حفظتها اليوم: مدير... حقير...
- فقط؟ هل هذا هو شعرك؟
- لا لا، إنها قصيدة لأحد أصدقائي، رفيقي في السكن، إنه رجل رائع حقاً...
- لا تملك بيتاً؟
- حالياً وجدت لنفسي محلاً للسكنى مع شاب تعرفت عليه في حانة منذ يوم.
- وأين كنت قبلها؟ أعتذر... لا تشغل نفسك بأسئلتني الكثيرة.
- لا! لا عليك! طردني والدي من البيت، ولست غاضباً منه حتى، هو مزاجي وسيرضى عني ويعيدني إلى مسكن مليء بحبه خلال فترة وجيزة. ها أنت ترين كل شيء واضحاً، اليوم يوم سعدي، في البداية أصبحت أنا ونادر - زميلي في السكن - أصدقاء، ثم تعرفت على أجمل فتاة في العالم وأنا معها على طاولة واحدة، كما أنني حصلت على عمل معها...
- فعلاً... يعرف الشعراء كيف يسيطرون على تفكير الأنثى بكلماتهم.
- أقسم لك إنني لم أقل فيك إلا ما يبدو جلياً أمامي.



- إمم... إقرأ علي قصيدة إذاً.
- أذكر قصيدة قديمة لي، لكنها لن تعجبك، أنا واثق.
- أنا مستعدة لسماعها، هيا لا أريد أن أتشوق أكثر، أمتع مسامعي.
- حسنا، اسمعي...

عدل صوته وجلسته ودقق النظر في عينيها بعد أن أمسك بيدها ولم يلاق رفضاً منها:

"تعالى إلى آخر الليل والأغنيات  
 هناك التقى العاشقون سكارى  
 فلا العاقلون يرون القصيدة فوق الظلام  
 ولا الأغنيات تُميل الرؤوس  
 بغير ضجيج يمزق قلباً  
 ترجى السكات  
 تعالى إلى شرفة من هباء  
 ووهم تطاول فوق الشتات  
 تعالى لنغزل بالريح عشا  
 نعود إليه بكل مساء  
 ولسنا نغادره في الصباح  
 تعالى لنجعل كل صباح مساء  
 ونصنع فوق الضياء ظلاماً



ونترك واقعنا  
 لنعيش على واقع الأمنيات  
 تعالي نحطم أعمدة للحياة  
 لنبنّي أعمدة من دخان  
 لعل الدخان يميت الذي  
 قد تبقى لنا من حياة  
 تعالي نلحن أغنية من هواء  
 ونعزفها طيلة الليل ظلاً  
 على قطعة من سراب  
 وننثرها طيلة الصيف جمرًا  
 لكي نقتل الطامحين  
 ونحيي في الصمت صوت الممات  
 تعالي ننادي القلوب البريئة  
 كي نزرع الليل فيها  
 ونمحو نقوش المحبين  
 تطفو على شجر لا يموت  
 تذكره بالحياة  
 تعالي لنغرس سكين يأس  
 لعل العبارة تنمو ممزقة  
 لا تبشر بالخير والطيبات  
 تعالي إلى آخر الليل والأغنيات  
 تعالي نعيش الجنون



ونقتل فينا البداية والصحو  
 علّ النهاية أعمق حزناً  
 وليس يرادف حزن المحبين  
 غير الحياة  
 تعالي إلى آخر الليل والأغنيات  
 تعالي فإني هنا في انتظارك  
 ما بين نجم ولحن وبعض حياةً"

تواصلت السهرة لساعتين في المقهى بعد أن فتحت  
 القسيمة جزءاً من قلب الفتاة كان متممداً غلقه، وشعرت براحة  
 وشيئاً ما يحركها تخشى أن تسميه إعجاباً. تحول الحوار الأول، أو  
 التعارف، إلى حديث يشبه ذلك الذي يدور بين حبيبين قضيا سنوات  
 يدوّنان العشق على ورق حياتهما الواحدة. بعد الراحة النفسية التي  
 جعلت ماري تخرج من المقهى ممسكة بذراع مارلون متعلقة بها  
 كقطعة بريئة، قضى الشابان نصف ساعة في الطريق إلى بيتها. وقفا  
 أمام الباب صامتين قبل أن يحاول التقدم كعادته في كسره قائلاً:

- كانت سهرة رائعة، ليثها لم تنته بهذه السرعة.
- أجل، ليت الوقت يكون مرة كافياً.
- تباً لليل ليس يكفي للحلم... تباً لحلم ليس تكفيه الليالي.
- لا تقلق، ربما نجد أفضل منها يوماً ما... نلتقي غداً إذا؟
- ألقاك غداً في العمل.
- إلى اللقاء.
- إلى الغد.



\*\*\*\*\*

"ما الأمر؟ أرجوك قل لي شيئاً، بدأت أشعر بالخوف عليك... لماذا لم تذهب إلى العمل منذ أسبوع؟"

قال مارلون بعد أن عاد من عمله لنادر الذي كان جالساً في حلة النوم على الكنبة يشاهد التلفاز. رفع الأخير عينيه قليلاً ثم ضرب بكفه على الفسحة بجانبه كأنه يربّت عليها وقال:

- هل يمكنك أن تجلس قليلاً؟ أريد التحدث معك في أمر ما.  
 - طبعاً! (قال مارلون وهو يهيم بالجلوس) هل هناك ما يشغلك؟

- لا... أريد فقط التحدث معك.

- وأنا كلي آذان صاغية.

- أنا جئت من تونس، من قرية لا يوجد فيها حتى كهرباء أو حنفيات للماء... بعد أن اجتهدت في دراستي وقمت بجمع الكثير من المال بالعمل في المقاهي والمطاعم في المدينة المجاورة، قررت تحقيق حلمي بإكمال الدراسة والعمل في كندا. وهذا ما حصل، حصلت على شهادة مرموقة من إحدى جامعات مونتريال ووجدت لنفسني عملاً في شركة معتبرة، بعد عمل سنتين سمح لي بشراء سيارة وشقة متواضعة وعدة بدلات وأدخار القليل من المال، وجدت نفسي رهينة للطمع.

فبدأت أختلس الأموال، قليل من الشركة وكثير من الزبائن. بعد اكتشاف جريمتي من قبل الإدارة تم فصلي بطريقة سلمية دون تتبّعات قضائية، وهذا ما أنا شاكر له حتى الآن. ولكن الفضيحة



انتشرت بين الموظفين وصارت سمعتي جداراً يُحُول بيني وبين العمل في أيّ شركة. خلال أشهر قليلة تقدمت للعمل في تسع وعشرين شركة في مونتريال وضواحيها، دون جدوى. وأنا إنسان يؤمن بالرياضيات ويقدم الأرقام، وقد أخذت عهداً على نفسي بعد المحاولة العاشرة ألا أتجاوز الثلاثين، لم أفكر حقاً ماذا سأفعل بعد الرفض الأخير، وقد بقيت أمامي تلك الفرصة فقط، لا أريدها أن تضيع هباءً. أنا الآن خائف حتى من المحاولة... فكرت في العودة إلى وطني التافه والحصول على وظيفة عادية في إحدى الإدارات، ولكن ماذا سأقول لأهلي الذين وعدتهم ألا يروني إلا ثرياً؟ ماذا أقول لأبي الذي بصقت على قبره قبل أن أغادر البلد وأنا أذكره أنني صنعت نفسي بنفسي ولم يكن له فضل علي؟ ماذا أقول لنفسي بعد السنوات العشر أو الثمان التي قضيتها ظاناً أنني أحقق حلمي؟ صديقي الشاعر مارلون، صديقي بائع الأحلام الجميلة والخمر، والمعنى بينهما لا يختلف كثيراً، أشّر علي أرجوك، فقط قل لي! ماذا علي أن أفعل الآن، أترجاك!

عدّل مارلون جلسته، حدّق في عيون صديقه الضبابية الشائكة بالحيرة والوجع، ثم داعب شعره بقوة وقام تاركاً نادر في حيرة أكبر. جلس الأخير مسمّراً في مقعده تتساقط الأفكار على رأسه تساقط حبات البرد على أرضفة يناير، هل أغضبه اكتشافه بأن صديقه مختلس محتال؟ هل أقلقته رؤية نديمه القوي اللامبالي يتوسل باحثاً عن حلّ ويترجى فتى يصغره سنناً عن حكمة ربما يجدها عنده؟ ربما أعجبه أكثر عندما كان غامضاً... أو ربما هو على موعد مع صديقه الجديدة ولا يريد أن يتأخر...



وبينما هو يصارع أفكاره إذ لمح صديقه يخرج من المطبخ وفي حوزته قارورة جاك دانيال بنكهة العسل وكأسان وابتساماة ملحمة على وجهه. وضع كل شيء على الطاولة واحتفظ بابتسامته ثم عاد إلى جلسته وهمّ يملأ الكؤوس وهو يقول:

- لماذا دعوتني شاعراً؟ أنا فقط درست الأدب، هل يجعلني هذا شاعراً؟

- (ابتسم نادر ابتساماة خبيثة وقد شعر أنه وجد من يستمع إليه ويحدثه بطريقته التي يفهمها) أنت انسان، وكل انسان شاعر...

- حسناً أنا شاعر إذاً! ولكن الأكثر من ذلك، أنا قارئ.

- طبعاً! كل الناس سواسية، كلهم شاعر وكاتب وعالم... ولكن القارئ يفوقهم بدرجة...

- وبما أنني أحب القراءة فقد اخترت كتاباً ليصاحبني طيلة الأسبوع الفارط، في الواقع لم أجد له صنفاً، لا هو شعر ولا نثر ولا حتى خواطر، هو فقط شيء من الحب والحكمة، فيه من الحياة ومما قبلها وبعدها، فيه من النعمة ما يخيف عديم القلب ومن الفرج ما يضحك الأموات.

- ما هذا الكتاب؟ من يستطيع كتابة شيء كهذا؟

- حدثني عنه صديقي منذ أسبوع، يسميه "الله" أو "الحب".

- القرآن! قرأت القرآن؟

- أجل، أردت أن أعرف خلفية صاحبي العزيز.



- حدثني...

- لم أجد فيه خلفية تتبّعها، ولو اتّبعتَه لما وجدت نفسك في هذا الموقف الآن، تمام اليوم بطوله وتسكر وتدخن ولا تتذكر إن كانت الشمس مستديرة بما يكفي لتلد صباحاً...

- تعني الخمر؟ أدري أنه محرم ولكن...

- لا لا! أعني حزنك وحيرتك... على كل حال هل تعلم

ماذا أخبرني هذا "الذكر الحكيم"؟

- ماذا أخبرك؟

- ولسوف يعطيك ربك فترضى.

طأطأ رأسه حتى اختفى وجهه عن أنظار صاحبه، اتّخذ كلاهما وضعية الصمت للحظات طويلة قبل أن يتفطن مارلون أن خطباً ما طرأ، وضع يده على كتف نادر فوجده يدفعها بقوة دون أن يرفع رأسه. ساد الصمت مجدداً... وفي لحظة أمسك القدح الموضوع على الطاولة ورفع رأسه بسرعة، نظر إلى صاحبه ثم قام في لمحة ورمى الكأس على الجدار بقوة وهو يصرخ بكلمات بالعربية لم يفهمها مارلون ولكنه فكر أنها ربما تكون الترجمة العربية للآية التي قرأها عليه.

نظر نادر إلى سقف الغرفة وهو جاث على ركبتيه وصاح شاهقاً بدموعه:

"رباه! يا الله! متى تعطيني فأرضى؟ انظر إليّ! هل هذا أنا؟ هل هكذا تتذكرني؟ أعلم! أعلم! يا الله! لا تذكرني! أعطيتني وأرضيتني وأصغيت لسنوات من فوق سقف غرفتي ولم تسمع



مني كلمة شكر واحدة! هل تتذكرني؟ نادر يا الله! نادر، حبيبك أنا... ما زلت تحبني؟ طبعاً! وهل هناك شيء يجعل الصانع يكره ما صنع؟ ولكن ماذا عني أنا؟ أنا والله أحبك... لا تنظر إلى تلك الكأس والقارورة التي التجأت إليها بذلك، انظر إلي أنا! انظر إلي الآن هنا! أين أنا؟ متى أنا؟ في أي بعد أراني واقفاً؟ هل تذكرني؟ صوتي قد يكون تغيّر كثيراً مقارنة بآخر مرة وقفت أحدثك فيها.

آخر مرة... كانت في وطني هناك، عندما سألتك أن تحقق حلمي، قلت لي إنني سأنسى معروفيك يا إلهي وأقسمت لك أمام نفسي - ولا أعز عندي من نفسي - بأني لن أنسى، ولكن... ولكني نسيت يا رب! ما العمل الآن؟ هل تقبلني مجدداً تحت ظل رحمتك برائحة الخمر التي تفوح مني؟ برائحة الجهل والنكران؟ أنا والله، وحقك وعزتك أحبك، ولكني نسيت أنني أحبك، هل ينقص ذلك من الحب شيئاً؟ هل تعني هذه الدموع شيئاً؟ لي ربما تعني الكثير ولكن ماذا عنك؟ دعني أذكرك بشيء يا الله، لقد قلت لي يوماً: "ولسوف يعطيك ربك فترضى"، هل تذكر ذلك الوعد؟ بالطبع! لست ممن إذا وعد أخلف! هأنذا أمام سمائك واقف أطرق باباً لم يغلق يوماً، هذا أنا، حبيبك الذي كان يحفظ من القرآن ما يحفظ، ذكرك الحكيم ذلك الذي كان صديقي الوحيد... انظر إلي! أدعوك بعد أن نسيت أنك تسمعي لألف سنة، الآن تذكرت، هل سترضى وتعطيني لأرضي؟ أنا الآن رضيت بما ترضى به، على الأقل إن كان لي أن أشقى فسأشقى برضاك لا بسخطك..."



كانت دهشة مارلون شديدة إلى حد الفزع، ولكنه كان هادئاً يراقب حوار اشتياق بين حبيبين افترقا على غفلة من القدر... شيء ما دعاه للابتسام كأنه سعيد لصديقه بهذا اللقاء، وشيء دعاه للبكاء كأنه يحسد رفيقه على حبيب كهذا يسمعه في كل وقت ويحسد الرب على عبد كهذا تكفي كلمة واحدة حتى يعود إليه جاثياً على ركبتيه.

بعد سهرة الليلة الماضية الثقيلة على الصديقين المليئة بكل أسباب الحيرة والخوف والتردد والفرح الخفي والدموع الممزوجة بضحكات دفينية، أفاق الشابان على الساعة السابعة إلا شيء صباحاً وحيوية غريبة تسري في عظامهما. أكلا فطور الصباح معاً يتبادلان الأحاديث والقهقهات والتشجيعات، ثم مضى كل منهما إلى عمله، عمل مارلون في محل الخمور وعمل نادر في الشركة التي لم يتقدم إليها بطلب ولا يعرف حتى اسمها.

نزل مارلون من السيارة يغدق صاحبه بكلمات الفخر والثقة، ثم واصل الثاني طريقه مفكراً في اسم شركة مناسبة له بعد أن حفظ جميع الأسماء والأماكن منذ شهر، بيد أن شيئاً ما في ذهنه المضطرب محا كل ما حفظه واسم واحد لاح له كأنه مكتوب على زجاج السيارة الأمامي والمرأة الجانبية وفي كل مكان... زجج حاجبه وهو يدندن أغنية ويضرب برفق على المقود ثم همس: "هاه... لم لا..."

أوقف سيارته في موقف شركته القديمة، رفع رأسه يتلذذ برؤية شبابه القديم ثم لم يلبث كثيراً حتى استقل المصعد نحو



مكتب المدير، ألقى تحية صباحية على زملائه القدامى الذين ملؤوه تعجباً واستغراباً بتهنئته على العودة سالماً، لم يفهم شيئاً من كلامهم معه ولا همسهم في ما بينهم ولكنه لم يشغل فكره كثيراً وسأل السكيرتيرة إذا كان بإمكانه الدخول لمقابلة السيد المدير إن كان موجوداً، فسمحت له.

طرق الباب برقة دون أي تردد أو تفكير زائد أو خوف ثم فتحه ودخل مطأطئاً رأسه احتراماً لصديقه القديم، سمع المدير يصيح باستغراب:

- نادر! نادر عباس! لقد عدت! حمداً لله على سلامتكم.
- (لم يفهم نادر شيئاً فحاول الاستفسار عن هذا الترحيب وقد تملكه بعض القلق) سلامتي؟
- كيف كانت عطلتك؟ ظننت أنك ستعود بعد يومين ولكن المهم أنك بخير.
- عطلة؟
- (أخفض صوته كالهامس) ماذا قال لك الطبيب؟
- أعتذر سيدي، لا أفهم كثيراً ممّ تقول... هل يمكن أن توضح لي؟

- ياله من طبيب بارع! حتى أنه جعلك تتسى ما حصل.
- طبيب ماذا؟ ماذا حصل؟
- حسناً، لقد جئت إلى مكنتي قبل شهرين أو ثلاثة وقلت لي إن الشركة لا تستحق مجرماً مثلك، لم أفهم شيئاً حينها، لكنك أوضحت لي أنك اختلست أموالاً من الشركة ويجب أن يتم طردك،



علمت أنك مللت من العمل هنا لذلك أتيت بخبراء تيقنوا بعد أيام من البحث أنك لم تختلس شيئاً، كما التقيت بالعديد من زملائك وقال لي جميعهم إنك متفان في عملك وهذا ليس من شيمك ولكنهم لاحظوا أيضاً أنك أصبحت دائم الإسهاب وفي أحيان كثيرة تكلم نفسك... لذلك أخبرتك أن تذهب إلى البيت لترتاح قليلاً وتزور طبيباً نفسانياً يساعدك على تخفيف الضغط عليك...

- ماذا تقول؟ تركت العمل بمحض إرادتي؟

- أجل، حتى أنني حاولت الاتصال بك ولكن هاتفك كان مغلقاً دائماً.

- وهل أتيتم بمن يعوضني؟

- جئنا بشاب وأعطيناه مكتباً صغيراً ولكن مكتبك في انتظارك حتى الآن.

- لا أعرف ماذا أقول لك...

- نحن أوفياء لموظفينا، لا يجب أن تقول لي شيئاً ينم عن الامتتان، يمكنك فقط مباشرة العمل متى شعرت بأن لديك القدرة على ذلك...

- حالاً سيدي!

جلس في مكتبه بعد أن مرّر أصابعه على جميع الذكريات المكتومة هناك، جلس برفقة سنتين قضاها على ذلك المكتب وصمّت يوجع رأسه. تلمّست يده طريقها نحو الدرج وسحبت في طريق عودتها دفترًا صغيراً وقلماً وأخذت تكتب:

"لا أعرف ماذا أكتب، ليست ذكريات ولا يوميات، ربما هي



فقط أفكار عادية لا أستطيع كتمانها ولا إخراجها بالكلام حتى لا يدور حديث عن أنني عدت للحديث مع نفسي، وكأن ذلك ضرب من المرض، وكأن فيهم من هو أجدر من نفسي للحديث معه. لا أتذكر فعلاً ماذا حصل لي، أو كيف نسيت كل تلك الأحداث، ربما جننت فعلاً، ربما مللت من عملي، ربما أردت الحصول على بعض التغيير، ولماذا صدقت كذبة اختلاس الأموال؟ لا أعلم، ربما كان ذلك ما أودّ فعله من البداية.

ثلاثون شركة تقدمت للعمل فيها، عزوت كل رفض إلى مشكلة الاختلاس، واتهمت شركتي الأصلية بالتواطؤ في الأمر، لم أفكر للحظة أنني غيرت رقم هاتفي أو أنه سُرق مني أو وقع في المرحاض أو أحد الحانات، والأرجح أنني أقتعت نفسي برميته بعد إحدى حواراتي مع نفسي. لا أعلم لماذا أفكر الآن في سارة، ربما كان سيسير كل شيء على ما يرام لو كنت أحدثها بدل الحديث مع اللاشيء عن اللاشيء... أشعر بقربها مني، هي أقرب لي من كل شيء الآن أكثر من أي وقت، ولكن شيئاً ما بداخلنا يمنعني من التواصل معها...

لو كان ما أكتبه رسالة لكتبت: اللهم إن كنت تقرأ ما أكتب فلك الحمد على هذا ولن أنسى وعديك "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وإن لم تكن تقرأه فأنت أعلم بما في نفسي مني ومن سارة.

\*\*\*\*\*

في تلك الأثناء كان عصفوران قد حطا على كتف الصباح  
يدندنان مع النسيم ألحاناً تكتب على أوتار قيثارة رجلٍ مشرّدٍ يمرّ  
أمام محلّ بيع الخمر اسماً من حريرٍ واسماً من ليك: مارلون  
وماري، اسمان يبدآن بثلاثة حروف متشابهة حتى يسهل على قدر  
النور حفظهما جيداً.

- هل أخبرتك كم أنت جميلة اليوم؟

- أربع مرات فقط.

- سيصبحون عشر في المساء، ماذا تفعلين؟

- أعدّ بحثاً.

- تدرسين في مكان عملك؟ بحث عن ماذا؟

- دراسة فرويدية عن الجنس وتأثيره على الطفل ومستقبله

كفرد فاعل في المجتمع.

- تقصدين بحثاً عن فرويد باختصار.

- تقصد أن فرويد لم يتحدث في غير هذا؟

- ربما، قرأت الكثير من كتبه وأطروحاته وجلها تتمحور

حول هذا المجال.

- ما رأيك أن تأخذ مكاني على مقعد الدراسة يا عالم؟

- ما رأيك أن تطعميني قبة يا جميلة؟

يفقد الجميلان وعيهما في عناق مليء بالقبل كأن لا أحد



غيرهما في المكان الذي يقع في أحد أكبر الشوارع في مونتريال،  
ولا كأنهما في محل عمل ولا كأن في وسعهما الانتظار حتى حلول  
المساء والخروج من العمل؟ عمل الدوام النصفى الذي كان كلاهما  
يعمل فيه بدوام كامل حتى لا ينسى الحب للحظة أن هناك شابان  
غريبان في محل خمر ينتميان إلى ساحاته.

\*\*\*\*\*

- ما قولك في التهم المنسوبة إليك؟
- صحيحة حضرة القاضي.
- امم، إذن أنت تعترف بالسرقة.
- أملك أسباباً خوَّلت لي هذه الفعل، سيادتك...
- وأي سبب يجعل شاباً مثلك يلجأ إلى السرقة؟
- الجوع سيدي.
- وهل يسدُّ الشعر رمقك؟
- قصيدة واحدة تشبع انتمائي إلى الفضاء لشهرين.
- إذن أنت تسرق قصيدة كل شهرين!
- تكفي خاطرة أو نظرة امرأة سيدي.
- ولماذا لم تكتب عليها اسمك لما سميتها؟
- كانت القصيدة أكبر من اسمي ومن اسم صاحبها.
- وهل تحفظها؟
- كما أحفظ اسمي قبل إشعال سيجارة الصباح.
- امم... إذن أنت لا تحفظها.

- كان يكفي أن أقرأها في الحلم حتى أدرك أنني في كامل

صحوتي.

- تلك مراوغة اللاشعور بأن قد يدلّ على عكسه.

- سرقت هذا القول من فرويد سيدي القاضي!

- حبيبتي تجبرني على قراءة كل كتبه.

يضحك الشابان ويملآن البيت قهقهات تتخللها كلمات

نادر:

- لقد كنت رائعاً في دور القاضي.

- أعلم... أملك الكاريزما اللازمة، تتقني فقط شهادة.

- الكاريزما التي تسمح للقاضي بأن يتحدث عن حبيبته

في المحكمة! (يضحك).

- (يلقي بجسده على الكنبه الزرقاء) أي متهم يتهم قاض

بالسرقة؟ أنت وقح فعلاً...

كان كل شيء في الشقة الصغيرة يضحك معهم بفم أكبر

من حجمه ويستمتع بوقته... داعب نادر شعر صديقه وسأله ماذا

سيقرأ الليلة، فكر الأخير قليلاً ثم قال:

- كتاباً عن فيزياء الكمّ ربما، أو أي نوع من الفيزياء.

- فيزياء؟ مضى عليك عامان في هذا البيت معي، ولم

أرك يوماً تقرأ كتاباً عن الفيزياء

- طارت نفسي إليه، وأنت ماذا ستقرأ؟ مضى علي عامان

منذ أصبحت زميلك في السكن ولم أرك تمسك كتاباً أو تتصفح



مجلة، رغم أنك تعرف الكثير.

- الليلة سبت، ولم نذهب إلى الحانة منذ مدة، ولكنني

خصّصت ذلك اليوم للكتابة.

- ستكتب إذاً...

- أرجو أن لا يزعجني صوتك أثناء الكتابة، أعرف أنك لم

تتعلم الصمت، وتلك المقولة التي اقتبستها من كتاب باولو كويلو

عن الصمت والكلام لم تكن إلا لتنال بها إعجابي.

- (يضحك) فعلاً... هل تعلم ما هو الشيء الأفضل من

الحديث؟

- الصمت؟

- من علمكم هذه الأكاذيب؟ الصراخ! الصراخ أفضل من

كليهما...

- وتعلمت التفلسف أيضاً!

- منك يا صديقي، تعلمته منك.

يرتمي كل منهما في ركن ويمسك كتاباً يلقي فيه رأسه إما

قارئاً أو كاتباً، ويسود الهدوء الجميل على البيت، هدوء لم يتجاوز

-كعاداته- ربع ساعة حتى تكلم مارلون:

- سرعة الضوء لا تتغير، إذا وضعنا مصدر ضوء في

مركبة تسير بسرعة الضوء فلن تتضاعف النتيجة...

- اخفض صوتك عند القراءة!

- ولكنني أريد أن تسمعي...

- وما شأنني أنا بسرعة الضوء؟ ألا تراني هناك في أبعاد



أخرى لا ينيرها ضوء؟

- السرعة هي المسافة مقسومة على الوقت، وسرعة الضوء لم تتغير بتغير المسافة... أتدري ما يعني هذا يا نادر؟  
- ماذا يعني.. (أجاب وكأنه مجبر على مجازاة طفل في سن الخامسة لا يتخلى عن نقاط استنفامه)

- يعني أن الوقت هو الذي تغير!

- وما الغريب في ذلك؟

- الوقت يا زميلي! إنه أكثر الأشياء ثباتاً!

- هل تظن أن الوقت ثابت؟ هل تظن ذلك؟

- الدقيقة هي الدقيقة في أي مكان وزمان!

- كم الساعة الآن؟

- لا أدري، ربما هي الواحدة بعد منتصف الليل، هل تريد

أن تنام؟

- وهل الساعة هي التي ستجبرني على النوم؟ منذ متى

ونحن هنا؟

- إذا كان ظني في محله فتحن هنا منذ ثلاث ساعات...

- ومنذ متى وأنت هنا؟

- لقد قلت لك! جلسنا منذ ثلاث ساعات تقريباً.

- سمعت هذا، ولكن منذ متى وأنت جالس هنا؟

- هل تنتظر إجابة أخرى؟ أجبني إذن كم مضى على

جلوسك هنا؟



- ثلاث ساعات تقريباً؟

- وما الذي جعلك تعيد سؤالي إذا كانت الإجابة نفسها؟  
 - ظننتك تمتلك إجابة أخرى، يمكن أن تكون هنا منذ ثلاث ساعات ولكنك قضيت منها سبع ساعات أو دقيقتين... أنا هنا منذ ثلاث ساعات وقد قضيتها كلها لحظة بلحظة لم أسه عن دقيقة منها. أشرب خمرتي في بيتي، الخمر والوقت لا يختلفان عندي، إذا شربت كأساً فقد شربت كأساً... وأنت ماذا كنت تفعل؟ تقرأ كتاباً؟ الكتاب لا يعرف الوقت، لا يعترف بساعة الحائط والتاريخ المعلق كشجرة ميتة كل يوم ينقص ورقة، كل سطر يأخذك إلى زمن حتى تعيش مرتين في كل صفحة... أنت ترى الوقت يمضي ببطء وأنت تقرأ، لذلك تأخذ وقتك كاملاً لتكتشف لاحقاً أنه مضى أسرع مما ظننت... أنا هنا منذ ثلاث ساعات، وأنت هنا منذ نصف ساعة وأنت هنا منذ مائة سنة... ناولني سيجارة وولاعة...

- كل ما قلته كان مبنياً على أمور نفسانية ومشاعر لا

علاقة لها بالفيزياء!

- هل سمعت ما قلته جيداً؟

- أجل يا نادر! سمعته ووعيته!

- إذن أين السيجارة والولاعة؟

- ما هذه الوقاحة يا صاحبي؟ هاك السيجارة، الولاعة

داخل العلبة الفارغة على اليمين.

- يمين من؟



- هناك علبة واحدة وحيدة فارغة، خذ منها الولاعة!
- أعلم ولكن لأسألك، أليس اليمين هو اليمين؟
- لا بل يعتمد على المرجع.
- إذا كان الوقت هو الوقت فلماذا اليمين ليس هو اليمين؟
- (... ) فهمت قصدك.
- كنت تقرأ عن نسبية الأشياء، أليس كذلك؟
- بلى.
- وما قرأته كتبه أينشتاين، أليس كذلك؟
- بلى.
- إذن أنت قرأت لأينشتاين ولم تصدق نظريته فأردت أن تأخذ رأيي فيها، أنا أعلم من أينشتاين؟ شكراً على ثنائك.
- صدقته وأردت عنه... أعني، لقد كنت أظن أن الوقت هو أثبت شيء، "الوقت هو الصحيح"... (قالها وهو يصنع ضفيريّتين بيديه في الهواء).
- الوقت هو الصحيح... تريد أن تخرجني؟
- لا لا! أردت أن أذكرك في ما قلته قبل فترة وأضحك عليك قليلاً...
- أعلم أنني قلت لك مرة بعد ثلاث ساعات من الشرب إن الوقت هو الصحيح، كنت مخطئاً، وأنت معي في الجريمة حين سكت! في الواقع لا شيء صحيح، ولا شيء خاطئ، كل شيء مباح... كل شيء نسبي أيضاً، الوقت نسبي والمسافة نسبية، فكيف لا يكون الصحيح نسبياً؟



- كل شيء صحيح وكل شيء خاطئ وكل شيء مباح...  
 - على الأقل هذا ما أعتقد... هل لديك سؤال آخر يمنيني  
 من إنهاء قصيدتي؟  
 - بلى، ألن تشعل سيجارتك؟  
 - لم تخبرني عن مكان الولاة، كيف سأشعلها دون ولاعة؟  
 - إنها على يمينك يا عنيد، يمينك أنت! ولكن هل تعلم كم  
 الساعة الآن؟  
 - ربما بلغت الحادية عشر والنصف الآن...  
 - إنها العاشرة يا من لا تخطئ خمرته في العداً الوقت  
 كاف كي تقرأ علي ما كتبت.  
 - حسناً، استمع جيداً، لن أعيد القصيدة مرتين! مدير...  
 حقير...

ضحك الشابان ليلتها كأن لا داع للغد أن يأتي، ونام كل  
 منهما على سريريه الجديد في نفس الغرفة مستعدين ليوم جديد  
 يزرع في صدريهما من الورود ما لا تقتلعه مصائب الدهر. وعلى  
 الطاولة بعض القوارير والكؤوس والفشار وكتاب عن النظرية  
 النسبية وورقة ممزقة كتب عليها بخط نادر المخيف:  
 "لماذا لا تنام؟ غداً عليك الاستيقاظ باكراً، عليك أن تنام  
 الآن... طبعاً لا يمكنك النوم، النوم باكراً شيمة الأغبياء، أغبياء  
 لأنهم لا يشربون القهوة المرة، يحبونها بالحليب كي يستطيعوا

النوم ليلاً... ليست القهوة هي السبب في بقائك حياً حتى الآن، ربما لأنك لا تريد الموت، لا تخشاه، فقط تمقته... أنت تفكر في جميع من ماتوا الآن وتتساءل: هل سيحيون غداً مجدداً ككل يوم؟ ربما لا تريد العيش معهم، ربما أنت حي مع النصف الآخر من الأرض، لا تدري هل تريد أن تكون بينهم أم تريد أن يكونوا بينك، ربما من الأفضل أن يكونوا معك، تعيشون في الليل وتموتون مع طلوع اللون، لا لشيء، فقط لأن لدى عيونكم الفاتحة حساسية من ضوء النهار...

ربما تريد النوم ولكن لا تستطيع، ألم في معدتك؟ لم تأكل منذ فترة. ألم في ساقيك؟ مشيت وراء السراب كثيراً وهربت منه كثيراً حين بلغته... ألم في عينك؟ لأنك عرضتها كثيراً للحياة أو ربما لأنك أغمضتها كثيراً. ألم في أملك؟ الكتابة تسبب الألم والنوم يسبب الألم والحب يسبب الألم. ولكن هل تدري ما الحب؟ تعرف الكثير عن الحب، تعرف عنه كل شيء، ولكن لا تعرفه، لا تعرف الحب... أنت تفكر في العشيقة والزوجة الخيالية تحشر وجهها في خيالك... أهذا سبب يمنعك من النوم؟ هناك سبب آخر، ربما هو البرد، برد في الجو وبرد في الذاكرة... كل الذكريات ضبابية وساكنة، الخبز لا ينضج والقهوة لا تنور وباب المدرسة لا يفتح والطريق لا يكتمل والقبلة لا تنتهي... عليك أن تنهيه قبل أن تنام! هي قبلة واحدة تكملها وعلكة واحدة تملؤها حتى تستطيع النوم... أنت تدري بأن العلكة ستسقط في التراب والقبلة لن تبدأ وأنت لن تنام..."



\*\*\*\*\*

أطلت الساعة التاسعة من الشباك كي تعلن لنادر أن الوقت قد حان كي يبدأ حلماً بن غفوتين. ألقى نظرة خاطفة على السرير القابع في الجهة المقابلة من الغرفة فلم يجد صاحبه، فكر بأنه قد يكون في موعد مع حبيبته ولم يشغل نفسه بالأمر... لثانيتين على الأقل. أخذ يفكر في التي يدعوها سارة، تلك التي تملك قلبه وعقله ولا أحد يعرف عنها شيئاً، لم يخبر صديقه العزيز حتى أنه لا وجود لشخص بهذا الاسم، وإنما هي صديقة وهمية تعرف عليها خلال أحد أحلام اليقظة، لم يخبره أنه كان يحدثها حين ظن الناس أنه يحدث نفسه، لم يخبره أنه افتك مكانها في قلبه منذ انتقل إلى جواره في البيت ليؤنس وحدته. ولكنه أحبها، أحبها حتى قبل أن يمضي إلى كندا، تلك الصديقة الخيالية التي خلق لها شعراً أصغر قصيراً وعيوناً خضراء وجسداً كأنه مطرز من الحرير...

تلك الحبيبة التي كان يكتب لها كل رسالة وقصيدة وخاطرة، وكانت تقرأ كل حرف قبل أن يكتب... تلك الرفيقة التي تعلم معها اللغة الإنجليزية والفرنسية لأنها لا تتكلم العربية... تلك الزميلة في السكن التي كانت تعلمه رقصة السالسا والتانجوفي ثيابها الليلية الناعمة تحت فراغ الليل...

رفع يده وهو ملقى على ظهره وشعر بسارة تقترب منه وتصعد إلى السرير بجانبه، كانت تبدو منهكة جداً وكأن شوقها إليه قد أكل نضارتها وأهزلها. وضع يده على خدها وهمس بابتسامة سبقتها تهيدة:



"نامي، نامي واتركي مساحة كافية على ذراعك، فهناك  
يتامى بصدري يبحثون عن وطن يحضنهم منذ سنوات."  
لفّ مارلون ذراعه حول خصر حبيبته ماري وقال بنبرة  
جادة:

- اليوم عاقبت حبة رمل في طريقي إلى بيتك.  
- لماذا؟  
- لأنها نسيت كلمة من الأغنية التي تدندنها خطواتي في  
الطريق إليك.

- وكيف عاقبتها؟  
- أبعدتها عن ممشاك حتى لا تدوسها.  
حدّق نادر في عيون سارة وهو يداعب شعرها بأصابعه ثم  
همس مجدداً بحزن:

"حتى الأصوات في رأسي صار يحدث بعضها بعضاً، وعدت  
أنا للحديث مع المرأة مرة أخرى..."  
وقف مارلون مع ماري أمام بيتها بعد موعد صباحي لذ  
وطاب لهما، وقال:

"كلما أشرقت من نومك، تتأبّت الشمس وانقشع الغيم  
وحاولت كل الأجرام أخذ موقع أقرب لرؤيتك. أنت سبب كل هذا  
الحر..."

أغمض نادر عينيه وهو يتنفس عبير سارة ويتمتم كالصامت  
الذي لا يملك حيلة:

"كلما حاولت التفكير في فتاة أخرى رأيتها تغتسل في عينيك"



ثم قبل الخيال قبلة على جبينه وقام يتجول في البيت بلا غاية تاركاً حبيبته التي لا يراها غيره ترقد مثل ملاك على سريرهِ الفارغ.

أمام بيتها كانت ماري تعدّل ربطة عنق حبيبها مارلون بمودة وتلقنه بعض الكلمات والنصائح وهي تداعب شعره من حين لحين كي تخفض من حدة توتره:

- هل أنت مستعد؟

- لا أعلم... أظن ذلك.

- كن واثقاً أن كل شيء سيسير على ما يرام، هو يحبك، لم أسمع أبداً بوالد تخلى عن ولده إلى الأبد، هي نوبة غضب وستزول حين يراك.

- لا أعلم... أنا خائف.

- انظر إلى نفسك! من في هذه الدنيا لا يحلم بولد مثلك؟

أعني... فيك كل مقومات الابن البار والزوج البار والأب البار...

- وهل سيرى في كل هذا؟ ماذا إن كان لا يزال غاضباً مني؟

- لقد مرت سنتان بالفعل! وصنعت نفسك بنفسك! أعني...

تملك نصف شقة مع صديقك الرائع نادر، تملك مالاً كافياً... تعبت ورضيت بالعمل في متجر كحول حتى وجدت لنفسك عملاً مرموقاً كأستاذ في معهد بدخل لا يستهان به... ولديك حبيبة جميلة مثلي.

- (يضحك وهو يقبل خدها) صلي من أجلي.



- سأفعل! وسأكون في انتظارك في المساء... سيكون  
عندنا زوار من صديقات أمي، لا تُقلق نفسك بالمجيء قبل  
المساء... فقط راسلني وأعلمني بما جرى... أو بالأحرى متى  
سيقابل والدك حبيبة ابنه.  
- حمداً للرب على حبيبة مثلك...

أخذ يجرح خطاه نحو الشقة حيث ترك سيارته الجديدة  
والعروق في رأسه تكاد تنفجر من شدة القلق والاضطراب... كل  
صوت حوله كان يسمعه كأنه صرخة تدق قلبه كحبة جوز، حتى  
صوت إغلاق صديقتة للباب سمعه داخل رأسه وكأن شقاً عظيماً  
قد تصدّع في ذهنه... شعر أنه خائف من كل ما يحيط به، كل  
الصور جالت في باله إلا صورة والده، كان يحتفظ بها ضبابية  
داكنة حتى لا يتذكر تلك النظرة على وجهه، نظرتة التي سمعها  
تقول بحسرة:

"يا خيبة المسعى، أهذا ما ربيت عليه ابني؟ ماذا فعلت كي  
أستحق ولداً مدمناً على تعاطي المخدرات حتى في بيتي؟"  
تلك النظرة التي تحولت من وجع وندم إلى شفقة ومنها  
إلى غضب...

قضى سنتين يشغل نفسه بكل تفكير هامشي لا يحمل  
معنى ويفرّس رأسه وأفكاره في الكتب حتى لا يتذكر تلك النظرات  
الأخيرة... حتى عندما يتخفى ليسأل عن أخبار والده كان يمتنع  
عن تذكر صورته وهو ينطق اسمه... لم يخف عن نفسه أنه اشتاقه



كثيراً، ذلك الأب الذي تركه لوحده في بيت واسع بلا زوجة ولا أولاد آخرين، ذلك البيت الشاسع الذي تعب طيلة حياته حتى يتحصل عليه. وكان يقول له إنه فعل كل شيء من أجله حتى يعوض عليه ما فقد من أمه التي هجرتهما مع عشيقها إلى أمريكا...

كانت ذاكرته تتلاعب بالأزرار حتى تغير من شكل أبيه وصوته، ولكنها لم تستطع تحريف أقواله، مديحه لابنه وفخره به، نصائح وعتابه، غضبه ورضاه، وأحداث تركت علامات وخدوشاً على الذاكرة، مثل سخريته منه عندما تم قبوله لدراسة الأدب والحضارات وقد كان سعيداً بذلك، استغراب الأب كان شديداً كيف بإمكان ولده أن يسعد بمثل هذا التوجه الجامعي بعد اعتقاده أنه استطاع أن يرسخ في ذهنه فكرة أن يصبح طياراً...

كان يسعده ويحزنه في نفس الوقت أن لابنه رأيه الخاص ولا يخضع لإرادة غير إرادته الكامنة في ذاته... يتساءل مارلون أحياناً إن كان ما وصل إليه بعرق جبينه وساعديه سيجعل والده فخوراً وينسيه سخطه، وكان فكره متردداً بين احتمال أن يسعد والده بكونه استطاع في سنتين أن يصنع من نفسه رجلاً واحتمال أن يغضب أكثر لأنه لم يعد ليتذلل إليه ويطلب الصفح طيلة سنتين. بينما كان نادر جالساً على الكنبه يمارس هواية الحديث مع نفسه بينما التلفاز المفتوح أمامه صامت، فتح مارلون الباب وأطل برأسه قائلاً:

- أنا ذاهب الآن يا صديقي، صلّ من أجلي.

- سأدعوك الله يا صاحبي أن يحزن قلب والدك عليك،



- أخبرتكَ سابقاً إن من أكثر الأشياء التي يحث عليها الإسلام هي بر الوالدين، في كل الحالات أنت فائز برضا ربك.
- ولكن يا حبذا لو فزت برضا أبي أيضاً.
- ليكن الرب في عونك... تبدو جذاباً قليلاً في تلك البدلة الزرقاء، أو كثيراً (أردف هامساً بابتسامة خبث)
- أشكرك يا صديقي، سأمر عليك إلى المنزل بعد أن أنهى هذا اللقاء وسنحتفل معاً.
- لا أستطيع الانتظار! اذهب بسرعة وستعود لتجد كل شيء جاهزاً للاحتفال.
- إلى اللقاء.
- صحبتك السلامة...

\*\*\*\*\*

ركب سيارته واتخذ طريقه نحو بيت والده مطمئناً مرتاح الفكر، متعجباً كيف أن كلمة واحدة من زميله في السكن وصديقه المفضل بإمكانها تخفيف الضغط الذي يصعب على مائة كلمة من حبيبته. ثم أخذ يفكر كيف أن هذا العائق سيقف أمامه لا محالة في يوم ما، سيستطيع طلب يد حبيبته، سيوفق أكثر في عمله حيث سيجد له ذهنًا صافياً، ولكن الأمر الأصعب كان مسألة السكن، لقد تعود كثيراً على نادر ولا يظن نفسه قادراً على الابتعاد عنه بتلك السرعة... على كل حال فإنه لم يجد أي عذر لوالده حتى لا يأخذه في حضنه ويخبره بنبرة الأب الغليظة كم اشتاق رائحته التي تذكره



بأن الحياة، حياته، لم تذهب سدى وأنه يرى فيه نفسه وهذا أكثر ما يحبه فيه...

وبين أفكاره الملونة بالوردي والأخضر الفستقي وتعجبه من المسافة الطويلة التي قضاها في أول يوم خرج فيه من منزله نحو تلك الحانة الغربية، وجد نفسه يركن سيارته أمام الفيلا التي كان يسكنها، ترددت نبضات قلبه قليلاً وفكر أنه كان أفضل ما فعل هو أنه لم يسأل عن أحوال والده منذ أكثر من شهرين، بهذه الطريقة يمكن أن يشتاقه أكثر ويرى لقاءه أجمل. فكر في سعادته هو أيضاً ولم يكتف بسعادة والده فقط...

سمع أصوات همس داخل البيت وهو يلاحظ وجود سيارة لا يعرفها هناك، رفع كتفه الأيمن وزجج شفتيه ليعبر لنفسه عن عدم مبالاته ومضى يطرق الباب...

بعد انتظار لم يطل سمع أقداماً تقترب من الجهة الأخرى، ودقات قلبه تصيح من جهته، زرع ابتسامته المشرقة غصباً وهو يراقب الباب يفتح حتى وجد نفسه واقفاً أمام سيدة جميلة متأنقة في لباس جذاب وتبدو صاحبة أعوام لم تتجاوز الثلاثين... حمحم قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

- أرجو المعذرة سيدتي، هل أن السيد يوهان كوليني هنا؟

- ومن حضرتك؟

- أنا ابنه، مارلون كوليني.

- أهلا بك مارلون، حدثني عنك كثيراً، أعني عن عقوقك

وهجرك له وكرهه لك.



- ماذا؟ أين هو الآن؟ أريد أن أراه.

- لن تراه! لا يريد رؤيتك.

- هل هو بالأعلى؟ دعيني أسمع إليه بنفسي! من أنت على

أي حال؟

- أنا زوجته وسأتصل بالشرطة إن لم تغادر الآن!

- شرطة؟ ماذا فعلت بعقله؟ أبي لن يفعل هذا بي إطلاقاً!

أنت من حرّضه!

- أنا لا أتذكر اسمك حتى... من كثرة ما كان يدعوك

بالحقير أو الابن اللقيط.

- لا! أبداً! أبي لن يقول عني شيئاً هكذا حتى في غيابي!

أعلم أنه ينتظرنني! لقد رأني من النافذة قادماً وأراد أن يمزح معي!

أريده الآن أمامي هنا! أين هو؟

- بالأعلى يستمع إليك ولم ينزل حتى الآن! ألا تفهم؟ لا

يريدك هنا!

ضربت الباب بقوة وأغلقت معه باباً من الحلم في ذهن

مارلون كان مفتوحاً على مصراعيه... ضبايية ليلية ممزقة كانت

الدنيا أمام عينه، حرب دامية ضارية قامت في رأسه وقلبه، حرب

شنها الوجود عليه وقد كان أعزلاً. وقف وسط عاصفة من وحدته

كأنه في صحراء قاحلة حتى رملها الأصفر يخلو من أي لمعان...

تراجع خطوتين كأنه يبتعد عن نفسه قليلاً، كأنه ينظر إلى جسده

من الخلف، تلك البدلة المبالغ في جمالها، تلك الساعة الغالية

التي اشتراها خصيصاً لهذه المناسبة، تلك الوقفة وذلك الثبات



المزعوم المزيف، كان يشاهد قطعاً منه تسقط، حتى النبض في قلبه كان قد مل للحظات وارتبك وتمنى لو يسكت ضجيجه قليلاً، تلك الرعشة في يديه واللون الأصفر الباهت الذي طغى عليه، تلك العلبة السوداء التي كانت تحمل هدية متواضعة غلفها بيديه ليعطيها لوالده بعد أن يدخل البيت متعانقين متوادين يتحدثان عن السنة الماضية والسنة التي سبقتها.

وجد الولد نفسه غاصاً في دموعه حتى لكأن عينيه كانت تتقيأ خيبته، رفع رأسه قليلاً نحو شباك والده وأخذ يصيح بصوت متقطع تتخلله شهقات طفولية:

"أبي! أبي!! أعلم أنك هناك تسمعني الآن... أعلم أنك تشعل سيجارك الكوبي الآن في هذه اللحظة وتشغل نفسك عن الاستماع إلى صوتي الذي اشتقت إليه بلا شك... ها أنا أقف أمام بابك باكياً مترجياً خاضعاً كأني أقف أمام باب الرب... انظر إلي! ألق نظرة على ابنك كيف أصبح! انظر إلي بدلتني! ألق الهدية يا أبي؟ أحضرت لك ساعة يد مذهبة يا أبي! أنت تحبهم، أعلم أن تحب الساعات، تعال وخذ هديتك! تسأل ربما كيف حصلت عليها؟ حسناً سأخبرك يا أبي، بعد أن هجرتني ورميتني بين الشوارع بلا مسكن لجسدي ولا لروحي وجدت من أهداني مسكناً لجسدي، عملت بائعاً في محل ما، وحصلت بشهادتي على عمل، أنا مدرس الآن! أنا مدرس مرموق وصاحب مال وافر واحترام في المجتمع، فعلت كل هذا وحدي من أجلك أنت يا أبي حتى ترى في الولد المثالي الذي كنت ترجوه! ولكن حتى الآن لم أجد مسكناً لروحي... ألق تدخلها



في دفتك يا أبي؟ البرد يقتلها بعيداً عنك... تعلم أنني لا أحب البرد! لم أعود عليه... تعودت على دفء صوتك وأنت تقرأ لي قصص ما قبل النوم، ودفء ذراعك وأنت تعانقني كل يوم قبل أن تذهب إلى العمل، ودفء نظرتك لي وأنت تخبرني كم أنك فخور بولد مثلي. ولكنني أعذرك يا أبي، لم تعد ترى في ما كنت ترى، خيبت ظنك وسمحت لنفسني بالخروج إلى برد الدنيا وظلامها، ولكنني الآن أمام بيتك، بيتي، أبحث عن الضوء، عن الشعلة التي أرى بها روحي، تلك التي تشعرني بوجودي... أحتاج حبك يا أبي، رضاك! هذا كل ما أحتاجه... قد تظن أنني أبالغ وأتصرف بصبيانية حيال الأمر، من في هذا البلد التافه يعيش مع والده بعد سن العشرين على أي حال؟ أنا يا أبي! الكل ينتظر الذهاب إلى الجامعة حتى يتصرف كما يحلوه بعيداً عن البيت، ولكنني اخترت الدراسة قريباً منك لأنك كل ما يحلولي... ترى كل من في سني يعيش مع حبيبته في بيت واحد بعيداً عن بيته وبيتها، أملك حبيبة يا أبي، ولكن لم أسمح لنفسني بالعيش معها، لم أحاول حتى النوم معها، لا أريد ذلك قبل الزواج، ولا أنتظر غير رضاك حتى أتزوجها... ماذا سأفعل الآن يا أبي؟ سعدت بصعوبة من الحضيض لأرضيك، وكل ما أراه الآن هو صدك يدفعني بجنون نحو الأسفل مجدداً..."

تماسك قليلاً وهو يمسح دموعه ثم اتجه نحو سيارته دون أن يترك لوالده علماً بأنه سيفادر، ألقى هديته على الأرض وركب وهو يدخل هواء صديقاً إلى رثتيه، هواء بيته القديم المليء برائحة الذكريات العذبة والحنين الموجه، موجه ولكنه يعطي



إحساس المخدر ومتعته... لم يسمح لشيء أن يحطمه، ادّعى القوة واللامبالاة ولكن علم أن عليه إخراج ما في داخله من وجع، واختار أن يلقي اللوم على حبيبته كونها أول من شجعه على الذهاب لطلب الرضا من والده، فكر أن طلبها كان فيه شيء من الأنانية لأن رغبتها كانت متمثلة في جعله يتزوج منها، وهي عالمة بأنه لن يتزوجها قبل أن يحسم الأمر مع أبيه وماضيه.

مرّ الوقت في السيارة طويلاً ثقيلاً عليه وهو يراود نفسه على نسيان كل ما جرى والاكتفاء بالفخر لأنه حاول، حتى أنه أراد أن يقنع نفسه بأن والده لم يكن في البيت حينها، وأن تلك خادمة فضلة، ولكنه متيقن من أنه سمع همسة وسط الردهة وتذكر بعض الأحاديث عن أن هناك من رآه في مطعم مع سيدة في الثلاثين من عمرها ولكنه اعتقد حينها أنها تعمل معه.

أوقف السيارة بعيداً عن بيت حبيبته عازماً على المشي قليلاً، لعل نسيم الكون الذي يحمله قادر على مسح دموع حيرته ودهشته. أخذ يمسح الرصيف الفارغ من المترجلين بأسفل نعله اللامع وهو يفكر في طريقته الاعتيادية في إخراج صديقه من بيتها دون جلب انتباه أمها ورفيقاتها اللئيمات، أو على الأقل هذا ما كان يعرف عنهن من حديث حبيبته. قفز بصعوبة متجاوزاً سور الحديدية الخلفية الذي يقل عن متر ونصف المتر، وتوجه نحو شباك غرفة الفتاة التي كانت في الطابق السفلي، لم يسمع خلال ذلك أي حديث أو أصوات نساء غير بعض الهمس المتأتى من تلك الغرفة.



اقترب دون إصدار صوت من زجاج النافذة ونظر من خلالها ليرى حبيبته فوق سريرها تضع رأسها على ذراع رجل ما وتهمس له بابتسامات مليئة بالود بينما يداعب شعرها وظهرها العاري.

"أنت أيضاً؟"

همس ضاحكاً وهو يعود نحو سيارته دون حتى أن تلاحظه صديقتها الوفية... ركب بسلاسة ومضى نحو البيت دون أن يشغل فكره إلا بفكرة واحدة:

"نادر لا يخون، نادر لا يتخلى عن أصدقائه، نادر يحبني"

\*\*\*\*\*

أمام البيت أوقف مارلون السيارة ونزل منها مرتعشاً غير قادر على مواجهة أي من أفكاره، لم يفكر هل سيروي كل شيء بصدق كامل لرفيقه في السكن أم أنه سيكذب لعله يصدق كذبه ويشعر براحة زائفة تغمره للحظات. ربما فكر في شرب عشرين لتراً من الوسكي وخمسين لتراً من الجعة وكأساً من النبيذ للتحلية، ربما فكر في الوقوع من أعلى أحلامه إلى قاع واقعه المزدهم بالأشواك والزجاج المكسور حتى تتشظى جمجمته وآماله وأفكاره البيضاء البريئة، أو ربما وصل به الأمر للتفكير في الحياة! حياة عادية، عمل، سيارة، حبيبة خائنة، صديق وفي... فقط حياة ما... ولكن ما كان بادياً على ملامحه هو أنه كان يفكر في



فتح باب البيت وإلقاء نفسه في أحضان صديقه والبقاء هناك إلى أن يحل فجر آخر أو يشرق حلم آخر. ولكن ماذا سيقول له؟ سيصمت في حضنه ليومين أو شهرين بيد أن عليه أن يقول شيئاً ما في آخر المطاف! سيهرب حتماً... لن يستطيع تحميل صديقه أكثر مما يحمله، لا يدري حقاً ما الذي يحمله صديقه ولكن عيناه الغامضتان مليئتان بشيء يؤلم الناظر لهما.

وجد نفسه يحاول إدخال المفتاح في قفل الباب ولا تبدو عليه علامة واحدة من علامات الحزن، عيناه جافتان، خدوده لا صفراء كثيراً ولا حمراء كثيراً، ولكن الدهشة كانت تملو وجهه... وبينما هو يصارع حمالة مفاتيحه إذ باغته صوت نادر القوي مدوياً من الداخل:

"مارلون لا تدخل! إبق! في الخارج... لا تفتح الباب!"  
عض على شفتيه كأنه يخفي بذلك أنيناً، ثم أسقط رأسه المنهمك على الباب ويداه متدلّيتان وقد سقطت منهما حمالة المفاتيح وبعض الأمل، وبين إرهاق ذهنه وألمه الشديد همس وهو يغلق عينيه قائلاً لنفسه:

"لا... ليس أنت أيضاً... أرجوك صديقي، لا تكن مثلهم...  
إني في أمس الحاجة إليك..."

وبينما هو يستجدي العطف من صاحبه بين نفسه وبينه إذ بدر إليه نفس الصوت مجدداً، ولكن أقل حدة وأكثر لطفاً:

"مارلون... أريد أن أخبرك شيئاً، ولكن لا أستطيع أن أوجه الكلام إليك مباشرة وأنت تنظر لي... يمكنك القول إني..."

خجول! أخبرتك إنني شاعر، ولكن تلك الأيام ولت، ولم أعد أكتب الشعر منذ قدومي إلى كندا لأنني لا أعرف غير الشعر العربي، اليوم استغللت فرصة ذهابك للقاء أبيك وأخذت أحاول كتابة قصيدة بالإنجليزية لنحتفل بهذا اليوم. وإن لم تجد أباك في البيت فلعل هذه القصيدة ترفه عنك، ستضحك على كل حال ولكن عليك أن تعذر ركافة ورداءة القصيدة فإنها تجربتي الأولى... أكثر من التقديم... آسف... اسمع! إحم إحم:

حِينَ الْمَآسِي أَرْغَمْتَنِي سُكْرَهَا  
 كُنْتَ الْنَدِيمَ وَوَلِي الْكُؤُوسَ وَخَمْرَهَا  
 أَنْتَ الصَّدِيقُ لَمْ سِيَأْتِي أَوْ مَضَى  
 وَالْبَرْدُ لَوْ نَفَثْتَ سَنِينِي حَرَّهَا  
 نَعَمَ الْحَبِيبُ وَمَنْ دَنَوْتُ لُوْدَهُ  
 شَرَّهَا، فَلَا قَانِي أَوْدٌ وَأَشْرَهَا  
 لَوْ كَانَ لِلْأَيَّامِ شَرٌّ كَامِنٌ  
 كُلِّي يَقِينٌ أَنْ تَقِينِي شَرَّهَا  
 إِنِّي أَحْبَبْتُ كَفَّ طِفْلِي، لَوْ دَهْنْتَنِي  
 النَّائِبَاتِ، عَلَى الْخُدُودِ أَمْرَهَا  
 وَأَحْبَبْتُ ظِلَّكَ وَاسْمَكَ الشَّادِي، إِذَا  
 سَمِعْتَ صَدَاهُ الْأَرْضُ حِينَا سَرَهَا  
 وَأَحْبَبْتُ حَبِي، كَيْفَ عَلَّمَ قَرْبُكَ  
 الْقَلْبَ الَّذِي يَضْنِي بِأَنْ لَا يَكْرَهَا



في تلك الأثناء كانت دموع مارلون قد ملأت الأرض، وكان يكتم غصته وشهقاته حتى لا يكاد يسمعها هو نفسه في قرارة نفسه الهزيلة، لم يكن ينتظر هذه الجرعة الزائدة من الحب من صديقه، كان يعلم أنه يحبه ولكن كان الأحرى أن يسمع ربع كلمة من هذا القصيد من والده، أو حتى من حبيبته التي كان ينوي الزواج منها... ولوهلة مظلمة شعر أن هذا أكبر منه. ماذا فعل كي يستحق كل هذا الحب من مجرد زميل في السكن؟ ماذا فعل كي يستحق كل هذا الكره من والده؟ ماذا فعل كي يستحق كل هذا الزيف من حبيبته؟ وفي لحظة شعر أنه تأثه تماماً، فكر للحظته تلك، وللمرة الأولى التي يفكر فيها، ماذا سيحصل عندما يتجاوز ذلك الباب؟ ماذا سيفعل بالتحديد؟ هل حقاً سيرتمي في حضن صديقه ليحفظ ما بقي لديه من دموع؟ هل سيمر من خلاله كالطيف دون أن يسعده أو يخجله بنظرة؟ أم سيقف أمامه بكل عجز ويحكي له كل ما جرى خلال يومه المشؤوم؟ ذلك اليوم الذي طال انتظار قدومه لسنتين كاملتين وصنع من أجله حياة، حياة مخصصة فقط لذلك اليوم... إذن ماذا سيفعل الآن بهذه الحياة؟ هل يكمل النائم غفوته بعد أن انتهى الحلم؟

\*\*\*\*\*

رفع رأسه ودموعه بعد صمت بينهما دام ثانيتين وتراجع بخطواته الثقيلة وأفكاره الثقيلة إلى سيارته، ركبها بسرعة وانطلق يحرق أعصاب الطريق بالعجلات المطاطية، تاركاً صديقه نادر وسط إعصار من الدهشة والاضطراب وهو يطل بنصف عين من خلف الستائر. قطع ما قطع من المسافة كأنه هارب من قدر مخيف لا يريد منه أن يكشف عليه وجهه، ثم أخذ نفساً عميقاً وأنقص من سرعة السيارة مشعلاً سيجارة. شعر فجأة أنه قادر على فتح حوار أخيراً، ولكنه كان لوحدته في السيارة، ربما... في الواقع لم يكن تماماً لوحدته، أو هذا ما خيل له. إفتك سحبة عميقة من سيجارته والتفت إلى المقعد المجاور له، دقق النظر ثم قال بصوت عال يملؤه الحماس كمن التقى أخيراً بصديق طفولته:

- إبليس! صديقي القديم! كيف حالك؟

- من أنت؟

- أنت، أو ظلك.

- كيف تعرف اسمي؟

- أنا سميتك! أنا الشعلة التي لم يطفئها نسيم الجنة.

- كيف تبعثني إلى وجودك؟

- تقمصت دوري.

- وكيف تعرف نفسك كل هذا القدر؟

- تعلمت ترتيل اسمي عندما أعبد المرأة.

- وهل أنت اسمك؟



- اسمي هو أنا.
- ما اسمك؟ من أي غيمة أشرفت؟
- أنا الغيمة التي أشرق منها ذلك...
- هل أنت أنا أم ظلي أم الغيمة التي أشعلت غيابي؟
- أنا اسمي
- وما اسمك؟
- إبليس...

جلس ساكناً على الكعبة الزرقاء لا خاطرة تحركه ولا نسيم يمر خلال شعره الناعم، تملكته حيرة خفيفة قاطعها حزن قاطعته حيرة أكبر. أوحى لنفسه أن والد مارلون لم يعف عن ابنه الوحيد وشعر بنقمة تجاهه، ثم شعر بنقمة وغضب على مارلون الذي لم يلتجئ إليه، ثم شعر بنقمة على نفسه بسبب القصيدة التي ألقاها في غير وقتها، وما لبث حتى أسف وخاف على صديقه متسائلاً بين قلبه وقلبه عم سيفعله الأخير بنفسه، طمأنه قلبه قليلة بحجة أن صديقه يملك من الوعي ما سيمكنه من تجاوز ما حصل؛ بعد قارورة خمر ربما أو بعد صلاة لله أو حديث مع المسيح عيسى الناصري.

"ماذا لو اتجه نحو العدم؟ (قال بصوت مسموع) لا يوجد طريق نحو العدم، كل الطرق تؤدي إلى هدف، ولكن ماذا إن كان هدفه هو العدم؟ هناك تكمن المأساة..."

لاحظ أن الظلام بدأ يراود شقته عن نفسها، قام وأشعل  
المصباح برعشة وهو يقول كمن لا يدري بمعنى الكلام الذي  
تتحرك به شفتاه:

"صديقي الآن في حرب ضارية، هو قوِّي أجل، لن يموت  
أجل! لكن... في الحرب، الحياة ليست هي أهم ما نفقده، ولكنها  
البراءة. لا يحزنني بأن الحرب تقتلنا بقدر ما يحزنني أنها تقتل  
الأطفال فينا... ذلك الطفل الشقي الذي يعيش بداخل صديقي، لا  
أريده أن يموت!"

اتجه إلى غرفته واستلقى على ظهره مشدوه الفاه والعينين  
والأفكار بعد أن تأكد أن هاتف صديقه مغلق. حان الوقت ليتجه  
لحبيبه الأزلي بطلب آخر... أغلق عينيه وأخذ يدعوره باسمه  
الذي يعرفه أكثر من أي اسم، الله، إلى أن باغته نوم ثقيل قاس لا  
يحمل في طياته أي حس ولا مشاعر.

في سيارته كان مارلون يصفر ويستمع إلى أغاني "توانتي  
وان بايلتس" وهو يراقب ما تبقى من الناس الغرباء في تلك المنطقة  
الغريبة يحاولون الوصول إلى بيوتهم وأهاليهم غير مبليين بدموع  
السماء التي كانت تبكي عليه. قال متعجباً بصوت عال :

"لا أعلم لماذا يركض الناس في الشارع يحاولون اجتناب  
تلك القطرات الصغيرة الضائعة بين السحاب تحاول تعلم الطيران  
على الأرض"



أخرج رأسه من النافذة وصاح موجهاً كلامه إلى كل من يعترضه طريقة:

"هذه الرشاش ليست مطراً، ما تسمونه مطراً وتهربون منه ليس مطراً، كل ما لم يتخلل مساماتي في طريقه إلى قلبي ليصلح عطباً طراً به ليس مطراً."

أدخل رأسه في خشوع ونظر إلى المقعد المجاور له ثم قال بدفء يغمر صوته حزناً:

"كم أصبح طويلاً هذا الطريق نحو غربتي، لا شيء يحركني في هذه الرحلة غير الحفر التي تملأ الطريق النائي عن الوجود، لا أنغام الراديو داخل السيارة وهي تصارع ضجيج الأفراد خارجها تلامسني، لا دفء السماء وهي تحنو على الأراضي القاحلة تسقيها خضرتها يلامسني، ولا وجوه عابري الطريق تسمح لشمس هذا الليل بأن تسرق سمرة بشرتهم وسواد عيونهم تلامسني. شعور بالخذلان وأنا أحاول الهرب بأفكاري من السيارة التي تأخذني غصباً إلى وطن ما. يملأني شعور بالخيبة وأنا أضع رأسي على المقود حتى لا أرد السلام على حبات المطر التي تتهافت نحوي، لا يذكر رحلتي في اتجاهي غير نفسي وبعض وجدوري، والآن جدوري اقتلعت نفسها وجلست على شواطئ الوحدة تنتظر الصيف، صيفاً ما. تنتظر أصحاب البدل والساعات الذهبية حتى يقتلعوا جذور زيفهم... تنتظر مساءً يحمل معه بشرى الوصول إلى طريق، إلى جسر، إلى زمن، إلى حرب ما... عندها فقط أفتك من انتمائي وأشهد أن لا وطن لي."

\*\*\*\*\*

السابعة صباحاً، أفاق نادر على نغمة هاتفه، تلك النغمة المخصصة لمارلون، فتح عينيه بوسع سعادته وفزرعه وقفز إلى الهاتف ليرد على الاتصال:

- مارلون!! أيها الأحمق! أين كنت طيلة الليلة السابقة؟  
أفزعتني أيها الغبي! أين أنت؟ هل تستطيع القيادة أم تريد مني أن أحضر لأقلك؟ مارلون؟ لماذا لا تجيبني؟  
- مرحباً...

- من هذا؟ أين مارلون؟  
- وجدنا هذا الهاتف وكان آخر رقم به هو رقمك، وقد كتب عليه الصديق الأعز

- ماذا؟ أين وجدتموه؟ وأين صاحبه؟ من أنت؟  
- شرطة... وجدناه في جيب الميت، مارلون كوليني... أنا  
أسف

سكت نادر وهو يشعر بوخز عميق يحطم ذهنه. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يسمع دقات قلبه تصرخ في أذنيه، ثم رد بصوت ضعيف مرتعش:

- هل تمزحون معي؟  
- أنا أسف سيدي... أردنا أن نعلمك حتى تأتي لتتفقد هوية الضحية وتؤكد لنا أن الشخص المتوفى هو نفسه حامل بطاقة الهوية...  
الهوية...

- مارلون... مارلون! هاي مارلون!! ما هذه المزحة؟ أعلم



أنك تسمعني الآن وتضحك! أخبر صديقك السخيف أن يعطيك الهاتف توا وكفى غباء! هل أردت أن تتأكد من حبي لك؟ أنا أحبك يا صديقي! أكثر من كل شيء والله أحبك! أرجوك رد... أرجوك... أخذت الدموع تنهال أنهاراً والغصة تطفى على صوته، شيء ما بداخلة كان شديد اليقين أن الأمر لم يكن مزحة... بدأ يعض شفتيه ويضرب سريره تارة ويشد الدثار بقوة تارة أخرى... قاطعه الصوت قائلاً بلطف وشفقة:

"نراك في مستشفى القديسة ماري في شارع لاكومبر حتى نأخذ أقوالك... اهدأ قليلاً سيدي ولا تتسرع، سنكون في انتظارك متى تمكنت من المجيء... أنا أسف لفقدك."

لم يدر كيف ارتدى بعض الملابس ورأى نفسه خلف مقود سيارته لا يأبه بإشارات المرور ولا السيارات الأخرى ولا بدموعه المنهمرة في كل مكان... قفز من سيارته دون أن يفلقها ودخل راكضاً إلى المستشفى إلى أن اعترضته مجموعة من رجال الشرطة، أمسك أحدهم من ذراعه وأخذ يصيح لاهتاً: "مارلون... مارلون كوليني! أين هو؟"

وضع الشرطي يده على كتف نادر المسعور محاولاً تهدئته وقاده معه إلى غرفة الموتى...

تلك الرائحة الباردة، ذلك المكان الخالي من كل إنسانية ووجود، ذلك الصمت المخيف، صمت رمادي، صمت أبيض لا يدل على أي سلام، صمت مليء بالفراغ... تلك الرفوف الجامدة التي كان يمر بها ملقياً عليها بعضاً من حزنه وحمرة وجهه وشهقاته



الطفولية، إلى أن وصل إلى ثلاجة يقف أمامها طبيب كئيب كأنه عائد من عالم الموتى. سحب الأخير الثلاجة مخرجاً منها طاولة مغطاة بلحاف أبيض، حمحم بصوت منخفض ثم أبعد اللحاف قليلاً وأبعد معه نبض الزائر عن قلبه، كأن الدم صار يجري في اتجاه معاكس في عروق نادر هارباً من قدر قاس لا يعرف الرحمة ولا مهرب منه... رفع يده بصعوبة ووضعها على خد صديقه الملقى على طاولة حديدية لا حياة بها وأخذ يبيل وجهه بدموع دافئة تسقيه بعض الحياة في مكان آخر بعيد عن الأرض...

"على الأرجح جرعة زائدة من الخمر والقنب"

لم يبالي الصديق الباكي بهذه الكلمات تغادر فم الطبيب بلا أي إحساس، لم يكن الوقت مناسباً للتفاهات العلمية، لا تهم أسباب الوفاة، لا تهم الوفاة في حد ذاتها، المهم هو المتوفى... أي قلب يملكه هذا الكائن المدعو بملك الموت حتى يسهل عليه خطف روح هذا الملاك النقية؟ أي عيون يملك حتى لا يرى الحب والطفولة يشعان من وجهه؟

أمسك يد صاحبه يدعكها ويقربها من جبينه وهو يقول متجنباً وطأة الدموع التي تراود عينيه على إطلاق عنانها:  
"أتذكر آخر سهرة في الحانة؟ أتذكر ذلك الحوار الذي

خاضه النبيذ مع النبيذ على لساننا؟

- هل تظن فعلاً أن صداقتنا لن تنتهي؟ سألتني.
- ماذا تعني بسؤالك هذا؟ أجبتك.
- أعني هل ستدوم صداقتنا إلى الأبد؟
- ولكن أنت تدري أنه لا يوجد ما يسمى بالأبد، فيزيائياً



كل شيء له حدود.

- ما عدى الكون، الكون ليس له نهاية.
- هذا ما نعتقد، لأننا لم نصل إلى نهايته، محدودية نظرتنا لا تعني لامحدودية ما حولنا.

- ولكننا نصدق النظرية ونعمل بها حتى يثبت خطأها.
- تريد أن نصدق أن ما بيننا لن ينتهي حتى نثبت عكس ذلك؟

- أريد أن نصدق أن ما بيننا لن ينتهي حتى نثبت أن للكون نهاية.

- ولماذا اقتنعت أن ليس للكون نهاية؟
- (تلعثمت وأنت تشعل سيجارة) لأن الكون يتمدد، كل ما فيه يتمدد، منذ وجد الكون وهو يسعى لبلوغ اللانهاية.
- إذن له نهاية وإلا لما سعى إلى تخطيها.
- فلنفترض أن له نهاية، ولكنها أبعد من أن نصل إليها، تماماً مثل نهايتنا.

- ولكننا جزء من هذا الكون، هذا الكون الذي لا ينفك يتوسع، كل شيء في الكون يسير على هذا النحو، كل بعض منه يبتعد عن بعضه الآخر بغية تحقيق إرادة الكون، انظر إلى جزئيات الماء كيف يبتعد بعضها عن بعضها حتى يتبخر، أليس من مصلحة الكون أن نساعد يوماً ما على التوسع بأن نفترق؟

- وما الذي سيفرقنا؟ الجاذبية؟ الحرارة؟ الضغط الجوي؟ (قال نبيذك بحماسة بالغة)
- الوقت! (أجاب نبيذي بهدوء)

- الوقت؟ الوقت لا يصنع من الجليد ماء، الحرارة والضغط يفعلان.

- وهل تتغير الحرارة في غنى عن الوقت؟  
- ماذا عن الجاذبية؟ أليست سبباً في التقاف الكون حول نفسه؟ إذن هو من جهة يريد التباعد ومن جهة أخرى يريد التقارب؟

- الجاذبية نتيجة وليست سبباً، كل شيء يتحدى الجاذبية، لكل فعل ردة فعل مساوية له من حيث القوة، أنت تعرف هذا القانون.

- أجل ولكن هناك تساو، على قدر قوة الوقت التي يبذلها حتى يفرقتا ستكون قوتنا حتى لا نتفرق.

- لماذا صغتها بهذه الطريقة؟ ليست مشكلة الوقت أن يفرقتا، لكنها مشكلتنا أن لا نتفرق، يعني على قدر قوتنا كي لا نتفرق سيبذل الوقت جهداً مساوياً كي يفرقتا.

- وما الفرق؟

- الفرق أننا نتعب، والوقت لا يتعب، قوانين الكون أقوى من الوقت والجاذبية.

- إذن كلما تقدم الوقت بذلنا جهداً أكبر كي نبقي معاً.  
- لا يمكن أبداً أن يبذل اثنان جهداً كي لا يتفرقا أكبر مما بذلاه كي يجتمعا.

- إذن سنفترق بعيداً عن قوانين الفيزياء (قالت خمركت بابتسامة على وجهك) سنفترق عندما يموت أحدنا.



- الموت جزء من فيزياء الكون، ولكن إذا افترضنا أنه أمر روحي لا علاقة له بالفيزياء فهو يعتبر حداً، إذن لا وجود للأبد.  
 - كل شيء نسبي (زادت ابتسامة نبيذك إشراقاً على وجهك) من هذه اللحظة حتى يموت أحدنا يعتبر أبداً.  
 - إذن يمكنني اعتبار الأبد هو الوقت الذي أخذته هذه المحاور، وإن ذهبت الآن يمكنني اعتبار أنا بقينا أصدقاء إلى الأبد.

- فعلاً (صاحت كأسك وقد خبت ابتسامة ثغرك) يمكنك فعل ذلك، إذن لنفترق الآن ولنعش يومنا سعداء لأننا لم نفترق إلى الأبد.

- لا تنس أن نلتقي غداً ونجتمع معاً إلى الأبد (ردت كأسى بلغة فمي).

- إلى أبد جديد غداً.

- إلى أبد جديد...

هل تتذكر ذلك الحوار التافه يا صديقي؟ هل تراني هنا جاثياً على ركبتي أحضن كفك الذي طالما داعب شعري وأزاح عن رأسي جميع الأفكار السوداء الغليظة؟ ها أنا أعذك بغد جديد، أبداً الأرضي انتهى، سنقضي قليلاً من الأبد نعاني وحدثنا قبل أن نبداً أبداً حقيقياً لا يعرف قاعدة واحدة من قواعد الكون السخيفة... إلى أبد جديد يا حبيبي..."

رفع رأسه وألقى نظرة حوله على جميع الموتى المحبوسين داخل سجن حديدي ولم يرفي نطاق نظره الشرطي ولا الطبيب،



أمسك صديقه بكلتا يديه من رأسه ونزل برفق ليقبل جبينه ثم خرج تاركاً وراءه فسحة من الهواء لصاحبه حتى يتنفس جسده آخر قطرة حرية من هذه الأرض التي تكرهه. ألقى تحية وابتسامته مزيفة على الطبيب الواقف أمام الباب وغادر المستشفى وابتسامته الزائفة لم تغادر وجهه طوال الطريق نحو الخمارة القديمة في حيه البئس.

كان المطر شبه غزير، ولكنه كان دافئاً بطريقة ما. والناس ترمق ذلك العابر الوحيد بنظرات تبلله حتى ولو حاول الاحتماء منها بماء المطر الجاف، أو ذلك ما كان يخيل له. حتى تلك القطة الكسولة التي لم تزل منذ عامين مرمية على الجدار القديم لا يثنيها عن يأسها صيف ولا غناء عصفور ولا رائحة قط ذكوري ولا مطر، حتى هي كانت تسألُه بعينيهما الخضراء الواسعة عن سبب تجواله لوحده... ربما افتقدت شيئاً من تحية رفيقه لها، أو ربما علمت أنه نسي السيارة أمام المستشفى، ولكن الأكيد هو أنها لم تستطع معرفة سبب ذهابه إلى المستشفى لوحده في هذا الوقت الباكر من الصباح بدل الذهاب إلى العمل. لم تعرف لأنها مجرد قطة، والقطة لا يباليون بشيء.

وقف التاريخ لوهلة يحدق في المار على رصيفه ثم فكر بين أوراقه وحبره:

"لماذا يمشي هذا الاسم لوحده على هامشي؟ لم يعد لي مكان للتعريف عن بقية الأسماء! أعرف هذا الوجه جيداً، ولكن



يبدو اليوم كأنه ينقصه وجه ما... أذكر أننا التقينا مصادفة قبل صفحتين أو كتابين... قبل الزمان ربما، عندما كنت أدون الأسماء قبل أن أحفظها... أظنني رأيته يوماً يتسكع في قصيدة يونانية أو على حد سيف بربري... لكنه اليوم يسيل وحيداً على الأوراق دون أن يدون قافية واحدة! وجهه ممطر جداً هل تخلق عنه إله الشمس؟ ولماذا أبالي أنا بهذا الاسم؟ اسم واحد لا يكفي للإجابة عن أسطورة! ينقصه اسم ما... اسم طريقه طويل جداً، ولكن ينقصه حرف، كان هنا قبل سطرين! ربما يعود الاسم كاملاً لو دونه مقلوباً أو مصلوباً، لم أعود على الكتابة من اليمين إلى اليمين، ولكن الاختلاف لا يكمن في جهة الكتابة، في هذه اللحظة كل الاختلاف مغباً في جهة الحانة التي يمضي نحوها... ما أجمل التاريخ الذي يستطيع التنبؤ بالمستقبل وما أكمله..."

\*\*\*\*\*

- إنها الساعة الحادية عشر صباحاً! ليس من عادتك المجيء إلى الحانة في هذا الوقت المبكر! هل هناك خاطب ما؟  
- أعطني جرعة مضاعفة مارك.  
- مارك؟ أنت تدعوني يا نادل منذ أعوام! إنها المرة الأولى التي تقول فيها اسمي! هناك خطب ما ولا شك... أظن مشكلة بينك وبين مارلون قد وقعت، ليس من عادتك المجيء إلى هنا كل على حدة... هاك كأسك... هل أنتما متخاصمان؟



- ماذا قلت؟ مارلون أتى هنا لوحده؟ متى؟  
 - البارحة في وقت متأخر، وكان يبدو على عجلة... حتى  
 إنه لم يشرب.

- البارحة؟ وماذا قال لك؟

- لا شيء مهم، إحدى فلسفاته العادية... أه تذكرت! سلمني  
 رسالة لأعطيك إياها وهو يقول ضاحكاً: "الحب... القرآن... ساعة  
 واحدة تكفي" ثم خرج وهو يتمتم: "الحب... الله... الحب..."

- رسالة؟ أين هي؟ سلمني إياها الآن!

- تفضل ها هي... هل أصابه مكروه ما؟

- مكروه؟ ماذا تعني بمكروه؟ لقد أصابني مكروه، ولكن  
 هو؟ لقد أصابه المحبوب المحبوب... أصابته معجزة الموت...  
 أعني ذلك الموت الفعلي الجميل وليس هذا الموت الزائف الرمادي  
 الذي يصيبنا كل يوم دون أن يترك مكاناً للبرزخ حتى يحضننا...  
 - مات؟ مار... مارلون مات؟ يا إلهي! أنا آسف....

فليرحمه الرب.

- ما أطمعك يا نادل! أي رحمة تنتظرها من الرب أكثر  
 من الموت؟ لقد رحمه فعلاً! (صب كأس الوسكي في فمه كأنه  
 عابر الصحراء عثر على قطرة ماء في سحابة كانت ترافق سيره)  
 أعطني كأساً أخرى يا مارك... لن أفتح الرسالة الآن على أي حال،  
 لا أحب رائحة الموت ولا لونه ولا طعمه، أحبه كاملاً أو لا يكون...

- وما أدراك ماذا بعد الموت؟

- أتيت من هناك! هل تظنني جئت من عدم؟ إبليس، ذلك  
 المسكين الذي أتى من الجحيم بغير ذنب منه، هل تظن أنه سيعود



إلى مكان غير الجحيم؟ حتى هو كان يعلم هذا مسبقاً، وربما كانت لديه حساسية من رائحة الجنة، لذلك اختار بمحض إرادته أن يعصي ربه حتى يعود إلى وطنه... نظام التأشيرة في الواقع نظام لاهوتي، عليك أن تعصي صاحب الأرض حتى يعيدك إلى وطنك.

- وهل عصيته بما فيه الكفاية؟

- ليس عليك أن تفعل ما يكرهه الرب حتى يغضب منك، يكفي أن لا تفعل ما يحبه... ولكن في جميع الحالات يحبك... (أشعل سيجارة خلال صمت النادل) كالأم التي تضرب ولدها بسبب خوفها عليه أو لتهدئيه.

- ماذا إن رمى بك في النار؟

- سأعلم حينها أنني خلقت منها وأعود إلى وطني بائساً يملؤني حنين في غير محله.

- ولكن الإنسان خلق من تراب، حسب ما درسنا في الإنجيل.

- كل تراب يحمل خصائصه، تراب في ذراته عطر جنة وآخر في ذراته عطر جحيم.

- هل هذا ما يقول الإسلام؟ إن كان الإسلام دينك طبعاً... لأنك عربي.

- الإسلام يقول ما تقوله النصرانية في هذا الأمر، وأنا أقول ما أقول أنا.

- لا بد أن وفاته أثرت فيك كثيراً.

- وفاته؟ مارلون؟ لا تقلق، أنا قتلته... أنا أخبرته أن

المعادلة الصحيحة الوحيدة هي "الله يساوي حب" ومارلون محتاج  
لحب من ذلك النوع.

- وكيف مات صديقك؟

- حسبك قول الشاعر الفلسطيني محمود درويش:

"فإن أسباب الوفاة كثيرة

من بينها وجع الحياة..."

- هل قتله الحب أم الوجع؟

- وما الفرق؟

التفت ورائه ليلقي نظرة في أرجاء الحانة للمرة الأولى  
منذ دخوله، وفجأة صاح بصوت عال أبح:

"العم جورج! أنت هنا! أليس الوقت مبكراً قليلاً لتسكّر؟

أعطني كأس جعة يا نادل"

حمل الكأسين وقام يتمشى تاركاً ورائه النادل يتمتم:

"ألم يكن باستطاعتك أن تتاديني باسمي ليوم واحد؟"

جلس قبالة العم جورج الذي لم يلق تحية ولم يرفع رأسه  
ولا حتى عينيه من على مظفأة السجائر، وضع أمامه كأساً من  
الجعة وقال بهدوء:

- لماذا كل هذا الوجوم؟ ما لك صامت هكذا؟ ليس من

عادتك؟

- ينقصك شيء ما يا فتى... (أجاب في صوت أقرب إلى

الهمس وهو يرفع رأسه قليلاً) شكراً على الكأس.

- لا شيء ينقصني، لأنني لست هنا في الأصل... إما أن



أكون كاملاً أو لا أكون أبداً.

- فعلاً... ينقصك أنت... أعني، ألم تكن منذ أيام نادر

ومارلون؟ لماذا أرى اسماً واحداً أمامي؟

- اسم واحد يكفي لمناداتي.

- صديقك مات إذاً.

- أجل.

- رزقه الحظ بقدر يحسد عليه.

- فعلاً... وها أنا أنتظر مثل ما رزق به... فكرت فيه

البارحة وخفت عليه كثيراً، خفت أن يصيبه مكروه ما، ولكن المكروه أصابني وأنا محبوس هنا ممدداً على سرير هذه الحياة التافهة.

- أفق! أفق إلى موتك، فلتنس احتلامك للذكرى وللأمل

ليلة البارحة وحاول رفع نفسك، تحامل على ركبتك الهزيلتين بكل ثقل مأساتك، لا تقل لأحد صباح الخير. فلتلبس كفنك بيدك ولتغمض عينيك وحدك، ثم اخرج من باب بيتك حيث تجد كل الموتى في انتظارك، تشاركوا ناركم وصياحكم ثم عد إلى البيت. انتظر هناك إلى أن تصيبك رصاصة حب فتحيا، فمصير كل ميت حياة.

- ماذا عن فتنة الفرحة التي تصيبنا فجأة؟

- واجه أفراحك جميعها بكل ما أوتيت من ألم! لا تتراجع

أبداً... فقط قليل من اليأس وسينتصر حزنك، وتعيشان سوية ما تبقى من خيبتك في وحدة وشقاء إلى أن يزورك ملك الحياة.



- مضى واحد وثلاثون عاماً منذ أن رأيت وطني آخر مرة.  
 ترى كيف أصبح الآن رحم أمي؟ دافئ كعادته أم أبرد شوقه لي؟  
 - في الحالين لن يسمح بعودتك إليه بهذه الرئة التي  
 مزقها التدخين وهذا الكبد الذي مزقه الخمر وهذا القلب الذي  
 مزقه الوقت.

- آه! ذكرتني أن أشعل سيجارة...

- متى يقيمون زفاف صديقك مارلون؟

- ذلك الذي يسمونه جنازة؟ عندما تتم زهور النرجس  
 حفر طريق له نحو الجنة.

- ذلك الذي يسمونه قبراً؟ إنما هو طريق يحضره الميت  
 لتجد الزهور سبيلها نحو الأبد.

- وماذا يملك هو مما يملك؟ ماذا نملك نحن مما نملك؟  
 - في الواقع نحن لا نملك شيئاً، لم نأخذ من الحياة شيئاً  
 ولن يعطينا الممات شيئاً، كل شيء غريب عنا تماماً مهما خولت لنا  
 ظنوننا أنه ملك لنا. حتى قدرنا، أقرب شيء منا، لا نملك منه شيئاً  
 بل يملك منا كل شيء.

- يكفي أن نصدق أننا نملك أنفسنا... هذا ما تقوله لي  
 الخمرة كلما سكرت من شوقي إليها.

- وكيف نسكر من الخمرة إذا كانت صحواً؟ لا بد أن  
 السكر يأتي من داخلنا وليس لهذه الكؤوس ذنب.

- من العَبَرَات كَأَسَا قَدْ سَقِينَا

وبالأرقِ أَمْتَحِنَا وَابْتَلِينَا



- الدموع ضوء يكفيننا لنبصر ما وراء العين، للدمع نور ولليل

نور

- فلا قمرٌ يضيئُ لنا الليالي

ولا فرحٌ يسلي النفسَ حيناً

- وما شأننا بالفرح؟ ألم الصبر ممتع كفاية

- ونحن الصابرون على المآسي

وما الأحزانُ عنّا صابرونا

- أنت شاعر إذن أيها العربي؟

- فقط في وقت الحيرة.

- وكيف تمكنت من كتم حزنك وضوء دموعك في مكان

طالما فتح يديه لمعانقتك وصديقك الراحل؟

- لم أكنم دموعي، إنما هي كتمتني.

- تحرر منها فتحررها.

- الخمارة ليست طاهرة كفاية لتستقبل دموعي.

- فلتزر ربك، اذهب إلى مسجد أو كنيسة.

- برائحة الخمر؟

- الرب لا يرجع زائراً ولا يقفل بابه في وجه عابر مهما كانت

رائحته...

وضع الكأس من يده دون أن ينبس بكلمة واحدة، تفقد

الرسالة المطوية في جيبه واتجه نحو النادل، أعطاه ثمن ما شرب هو

والعم جورج ثم خرج من الحانة وقد تركه وراءه يدقق النظر كعادته

في مطفأة السجائر كأنه يبشرها بذهاب الضيف الثقيل والسماح

لهم بمواصلة الحوار الصامت...

\*\*\*\*\*

مضى يجر الطرقات بأقدامه المتعبة لا يثنيه جوع ولا برد ولا حزن، كان هدفه واضحاً ومظلماً، كان سبيله مستقيماً ومتشعباً، كانت أفكاره مركزة ومهمشة، منظمة وفوضوية... كان يلتفت يمناً ويسرة كأنه يفتش عن شيء ضائع عنه منذ زمن طويل، شيء ما يعرفه جيداً، شيء عالق على أطراف ذاكرته، ولكن لم يتمكن من تذكره أو معرفة ماهيته ولا الوصول إليه... كان يفتش عن الرب أو بيته، إلى أن اعترضه مسجد صغير كان يعرفه جيداً وزاره كثيراً أول ما قدم إلى مونتريال، ولكنه اليوم يبدو غريباً، يبدو ضاحكاً وسعيداً، يبدو وكأنه يتعرف على زائر أو سائح للمرة الأولى.

فتح المسجد بابه الخشبي المزخرف الصغير ودعا الفتى للدخول. دخل الأخير مشدوه الفاه يملؤه شعور غريب بالذنب والخوف والتردد، لم يعرف ما سيفعل، لا يستطيع الصلاة لأنه كان يسكر ولكنه فكر في الجلوس هناك في حضرة الله، ربه. نزع حذاءه واقترب من المحراب الفارغ مثل بقية الصفوف واختار لنفسه صفاً ليس بعيداً ولا قريباً من الله، ولكنه شعر أنه أقرب ما يكون من الله. تلفت حوله ثم قال ساخطاً عندما لم يجد غير الذي أتى من أجله: "ثم ماذا؟ ها أنا أمامك أنتظر جواباً منك، ثم ماذا؟ أخذت صديقي الوحيد لتذكرني بوجودك؟ أم هي دعوة نطقت بها سارة بعد أن هجرتها قليلاً فأصابتنني؟ ثم ماذا؟ أنا الشخص السيء هنا، أنا الشرير في هذه الحكاية، لماذا لم تأخذني أنا



لتوبخني وجهاً لوجه؟ تعلم أنني أحبك وأخشاك ولن أرفع رأسي  
في حضرتك، لماذا إذن لم تخلصني أنا من هذا العذاب الزائف  
الذي اخترته لنفسي إلى عذاب حقيقي تختاره أنت؟ على الأقل  
سيفرحني أن ذلك اختيارك أنت، وأنت أحكم الحاكمين وأنت أعلم  
مني بي وأكثر حباً مني لي! هل كثير علي أن أطلب لقاءك؟ أن تعلن  
لي حبك أمام جميع خلقك؟ أنا أقرأ كلامك كلما أصابني مرض  
الوجود، فهل تقرأ كلامي؟

يا خالقي ممّ خلقت محمداً  
واسٍ انشقاقي مثلما واسيتهُ  
انظر فؤادي في الزمان مقسم  
لا حاضر يحلو ولا ماض له  
العدل منك، فمثلما عزيتّه  
بخديجة، لي صاحب وافيتّه  
والجود منك فلا تكن لي هاجراً  
مهما هجرت وجودكم ونسيتّه"

لبس حذاءه دون أن ينطق بكلمة أخرى أو تراوده فكرة  
أخرى وخرج بسرعة دون أن ينتظر جواباً من صاحب البيت ودون  
أي وداع. راودته فكرة عن سيارته التي تركها خارج المستشفى  
ولكنه محاها بسرعة من ذهنه وعاد يهيم في الشوارع باحثاً عن  
مؤنسٍ آخر لوحده المستقبلية، أو ربما المؤنس هو نفسه ولكنه أراد

زيارته في بيت آخر. لا يريد منه جواباً ولا فرجاً، يريد فقط أن يسمعه صوته، أن يذكره بوجوده.

وبينما هو هائم في فراغ أفكاره البعيدة عنه إذ وجد نفسه أمام كنيسة حيّه، لم يستأذن نفسه، دخل مباشرة إلى الصف الأول حيث تقبع شمعة يتيمة أكلت الوحدة نصفها، جثا أمامها على ركبتيه الهزيلتين ورفع رأسه، حدق طويلاً في تمثال العذراء المعلق أمامه ثم قال بصوت الأنيس الذي أصبح من أهل الدار، يخاطب صاحبة البيت في دفء يشعرها أنه منها وعاد إليها أخيراً بعد غياب، بصوت العتاب والشكوى وغصة الدموع:

مسح ركبتيه متوجهاً نحو الباب، وقف على العتبة ليأخذ نفساً عميقاً لأفكاره وحتى يتبين إن كان كلامه جديراً بحضرة مريم وابنها وربهما، التفت إليها مودعاً وهو يهمس:

"ألقى السلام على أبي/إلهي، وأخبريه بأنني تعبت من البحث عنه وهو واقف أمامي، أطلبني منه أن يفتح عينيه حتى أراه ويفتح شهيتي حتى أحب البسكويت المنزلي الصنع وأكره الشاي..."

وجد نفسه فجأة واقفاً أمام سيارته المركونة بجانب المستشفى وداخلها المفتاح، شكر في سره العامل الذي قرر أن لا يسرقها وألا يضعها في مكان غير واضح للمارة في طريقهم إلى غرف المرضى والموتى. ألقى عليها تحية ودخل المستشفى ليوقع على بعض الأوراق التي تمكنه من دفن نفسه التي نسيها منذ يوم في جسد صديقه وهو يلقي عليه قصيدة قاتلة. أخذ موعداً مع مسؤول من دار الجنائز على الهاتف الذي فتحه لتوه، وركب في السيارة...



انهالت عليه الرسائل والمكالمات التي ضلت طريقها من مدير شركته إلى أذنيه، لم يشغل باله بالاستماع إلى الرسائل الصوتية ولا بإعادة مكالمته، بل وضع حزام الأمان ببرود وثقة واختار قرصاً مضغوطاً للأغاني التي كان يحب سماعها مع مارلون، أغمض عينيه دون أن يشغل السيارة وأخذ يردد بهمس كأنه صدى لما كان يسمع:

"i can feel it coming in the air tonight"

شغل المحرك وأخذ يجوب الطرقات البائسة لا يكاد يمسح المطر من على زجاج سيارته، شيء ما في رائحة المطر ذكره بصاحبه، شيء ما جعله يشعر أن تلك دموع يقذفها مارلون من سمائه، من شرفة بيته الجديد في الجنة أو الجحيم حتى يفكر صاحبه الذي مازال يعاني من مصيبة الحياة بوجوده.

دخل بيته، أكل قطعة من الجبن وقليلاً من الخبز ودخل المرحاض ثم اتجه نحو غرفته الموحشة الخالية من أي صوت جميل. استلقى بثقل على نصف ظهر ونصف مؤخرة وفتح الرسالة التي صبر عليها يوماً كاملاً، اشتم رائحة النيذ الجميلة التي تفوح منها وأخذ يتلو حروفها بهدوء:

"باسم الحب... صديقي المتوفى، أعتذر منك قبل كل شيء لأنني خنتك واخترت الحياة، حياة جديدة بي، لن تكون بجمال الموت الخفيف الذي قضيته معك لمدة سنتين في ذلك البيت الرائع، ولا بجمال الموت الأشبه بحياة الذي قضيته بصحبتك على تلك الكنبة الزرقاء.



أنا الآن في سيارتي بصحبة صديق جديد يدعي أنه أنا  
ويخبرني أن اسمه إبليس، وقليل من الخمر والقنب الهندي، أستمع  
إلى بعض الأغاني التي لا أفهم منها كلمة لمغنيك المفضلة أنغام،  
لا أعرف ماذا تقول ولكن يبدو أنها صامتة، ألم ما يتكلم على  
لسانها، وجع ما يدعو وجعها للرحيل...

أجلس في هذا المكان المليء بالأرواح الهائمة التي لا تزال  
تبحث عن ملجأ لها تحت ظل هذا الوجود، وأسأل نفسي:

ثم ماذا؟ تبحث عن لقمة باردة تسكت بها بطنك. ثم  
ماذا؟ تمضي هائماً على وجهك بين الشوارع يصفعك البرد من كل  
الجهات. ثم ماذا؟ تدخل إلى أول حانة تجدها قبل أن يحل وحش  
الظلام. ثم ماذا؟ تجد لنفسك ركناً كثيباً يستمتع قلبك المتعب  
بصحبته. ثم ماذا؟ كأس مذهب تقبله بين السيجارة والأخرى  
وسماعات أذن تزف إلى رأسك الكبيرة كل ألوان الحزن. ثم ماذا؟  
تراقب وحدتك بعين واحدة حتى لا يشعر بوجودها أحد سواك. ثم  
ماذا؟ لا تفكر في شيء، فقط تجلس بساق على ساق وتقوس ظهرك  
كالسحفاة حتى لا يتساقط منك بعض اليأس على الأرض التي ملت  
إيقاع أقدامك الثقيلة. ثم ماذا؟ ثم لا شيء، تعود إلى البيت وتنتظر  
بفارغ الصبر الغد حتى تعيد كل ما فعلته اليوم.

يملكني شعور جميل أن الغد، غدي، سيكون مختلفاً،  
سيكون أبيضاً، لن أشرب قهوتي في كوب متسخ جالساً على كنبه  
زرقاء، سأشرب سكوناً، وداً، حباً...

بالحديث عن الحب، إن وجدتي وقد ضاع مني كل نفس



وغابت ضحكتي فاعلم يا صاحبي، يا حبيبي، أنك أنت قاتلي... قضيت حياتي كاملة باحثاً عن شيء يعطيني حياة ويعطيها معنى، باحثاً عن الحب. ولكن الحب الذي نشدته كان مجرد حب، إنساني، عادي، ناقص، حبك الكامل المبالغ في كماله لا يحييني بقدر ما يقتلني. أبي الذي افتك مني الحب المزيف الذي أشبعني به كان يعطيني أملاً، أملاً زائفاً، سراياً يجعلني لا أتوقف عن المشي. ذلك السراب الذي صنعه أبي، حين اختفى يا صاحبي لم يأخذ معه أمل الماء، وعابر الصحراء لا يبحث عن السراب بقدر ما يبحث عن الماء، لا يهمله ما سيحصل حين يجد الماء، ولكنه يبحث عنه إلى أن يموت موتاً هادئاً جميلاً. حبيبتي ماري أشبعنتي أيضاً بحب زائف جميل، ولا جمال للحب إلا إذا كان زائفاً، ولا جمال للماء إلا إذا كان سراياً. حتى هي، حتى حبيبتي عثرت على سراب أجمل من مائي، مائي كان أنقى من أن تستمتع بشربه.

ولكن أنت يا صديقي، يا حبيبي، قتلنتي بحب كان كاملاً، صافياً، لم أشأ يوماً أن أعبّر هذه الصحراء، لم أشأ أن يتحول السراب إلى ماء ووطن وظل... ماذا فعلت في حياتي كي أستحق ودك؟ لم تترك لي فرصة حتى أبكي على كره والدي أو خيانة حبيبتي؟ لماذا فجأة كنت والدي وحبيبتي المثاليين وصديقي؟ أم هل كنت فقط صديقي؟ هل هكذا هي الصداقة حقاً؟ حب كامل لا يشوبه عيب؟ ليت الآباء والأزواج كانوا أصدقاء إذن، ليت الحب كان بذلك النقاء دوماً...

لا أريد أن أطيل عليك كثيراً يا صاحبي، يا قاتلي... لن



أكون معك غداً على تلك الكنبه الزرقاء، سأكون على كنبه أوسع مع حبيب آخر، حبيب مثالي قرأت عنه في كتاب هو كتبه وسماه القرآن، أو هكذا قيل، إنما أنا أسميه حياً، وأنا مستعد بكل ما أملك أن ألتقي بهذا الحبيب، ساعة واحدة تكفي... وسأترك لك نصيحة واحدة تعينك على موتك الأرضي بدفء يبعث على روحك الحياة داخل جسدك المتعفن:

امسح كل احتمالات الخيبة من على كتفيك، ارم كل ثقل معلق كالعلقة بظهرك، امح كل خطوط اليأس المتساقط على خديك، ألق ابتسامة صفراء على العالم من ورائك وامض. امض في طريق لا ينتظرك آخره، حيث لا أحد يلقي عليك تحية الصباح الباردة، لا أحد يلقي على صدرك وزر ابتسامة عليك أن تردها، لا أحد يلقي حول نحرك حبلاً من المجاملات التي لا تروي شيئاً من الأزرق المخبأ تحت عينيك، ولا أحد سواك. حاول بكل نفس مازال في سيجارتك أن تبلغ نهاية الطريق، وعندما تصل هناك ألق دقائق قلبك المنهكة على الفراغ الشاسع وألق نظرة من حولك، لن تجد أحداً هناك، لن تجد شيئاً هناك، لكنك ستجد نفسك وعندها فقط ستجد كل شيء.

عليك سلام ربك."

أغلق الرسالة برفق ثم قال بغصة وهو يحضنها إلى

دموعه:

"صدق الحب..."

وضعها على الطاولة المجاورة لسريره وهو يكتم صراخ



دموعه بشهقة توجع حلقه، ثم انزلق على السرير وتوسد كفيه فوق الوسادة ونام كأنه لم ينم منذ شهرين، ونام السرير والكنبة الزرقاء والتلفاز والبيت كأنها الليلة الأولى التي تمر عليهم بغير تهويدات صديقهم الراحل، كأنهم لم يوجدوا قبل أن يأتي به القدر إلى هذه الصحبة الكاملة الكاملة النقية. ونامت المدينة ليلتها الأولى خالية من أي دفاء، من أي خطأ رقيقة تمسح عن ليلها ظلامه وعن صباحها حزنه، خالية من أي صوت عذب يبعث في عصافيرها رغبة للغناء ولقططها رغبة للنوم على أسوار المنازل التي لا تزال تبحث عن أهلها من لحظة اختار مارلون حياة أجمل مع رفيق أجمل بعيداً عن هذه الأرض المزيفة حتى في طريقة وقوفها ودورانها المائل.

\*\*\*\*\*

في المقبرة وقف ثلة من زملاء مارلون في المعهد حيث كان يعطي دروساً، اثنان من أصدقاء الجامعة القدامى، والده وزوجة والده، حبيبته ونادر. ألقى القس كلمة مكررة فارغة من أي معنى وقرأ بصوت بارد كأنه لا يعي حرفاً مما يقول:

"إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت. فإن عشنا أو متنا فللرب نحن."

أغلق الكتاب وهو يقوم بإشارة التثليث ثم رفع رأسه يدقق في الحضور وقال:

"من منكم يريد أن يتوجه بكلمة أخيرة لهذا الشاب فليأت



بجانبي وليتكلم الآن، إنه يسمعكم في هذه اللحظة كما يسمع بعضكم بعضاً."

صمت الجميع بينما تقدم صديقه نادر مبتسماً عابساً كأن وجهين يتصارعان في وجهه، وقف أمام النعش المفتوح محمماً وألقى نظرة على وجه الفقيد بصعوبة ثم قال برعشة:

"كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون."

اقترب أكثر من النعش دون أن يرفع رأسه وقال كالمخاطب

من يرقد فيه:

"ثم ماذا؟ لمن تركتني؟ لحيرتي الأولى؟ أعود إليها إذن؟ كيف يفقني صباحي بغير صوتك؟ كيف يشبعني طعامي بغير نفسك عليه؟ كيف ينيمني ليلي بغير ضجيج أفكارك المزعج؟ البارحة، والليلة التي سبقتها عانقت وسادة من وحدتي لأنام بعيداً عن ثرثرتك الجميلة، كنت أحبها برغم لومي الدائم، كانت أوضح سبيل لي نحو أحلامي، والآن ماذا؟ كلما أغمضت عيني لأنام يطل علي الوحش القاطن تحت فراشي بمخالبه السوداء ليلفها حول نحري، في كل مرة أصفعه وأخبره أنني لم أعد خائفاً منه. والآن لا يستطيع المسكين النوم خوفاً من الوحش الذي يرقد تحت سريره..."

رفع رأسه ليجد الدموع قد ملأت أعين الحضور، لم يجد له ذهنه سبباً مقنعاً لذلك، ولكن الأمر لم يزعجه، مازال بعضهم يظن أن عليه البكاء في جنازة، ولا أحد يعرف المتوفى حق معرفته. بيد أن ما أزعجه حقاً هو تلك الدموع المترقرقة فوق خدود الأب



والحبيبة. غير لون وجهه ونبرة صوته وجعلت عيناه تترددان جيئةً وذهاباً وهو يصرخ:

"تبيكان؟ علام تبيكان؟ ربما... على هذا المرمي هنا بلا قدرة منه على أن يصفع كليكما ويخرج الخبث المخبأ تحت دموعكما؟ ما الذي يبكيك أيها الأب؟ ربما لم تتوقع أن يموت بهذه السرعة، هاه؟ ولكن أتدري شيئاً؟ الناس يموتون، الموت لا يبالي بأعمار ضحاياه، ولكن... ألسنت أنت طرفاً في الجريمة؟ أتظن أنه كان ليقتل نفسه لو قبلته ابناً لك؟ بعد كل ما رأيتُه يفعله من أجلك كم كنت أود لو كنت أكبر سنناً لأتخذه ولداً لي، ولكنه لم يكن ليقبل على أي حال، لم يكن ليريد أباً غيرك ذلك الأبله، حفظه الرب، كان صغيراً، لا يقدر على التفكير الصائب، لا يملك شيئاً من الحكمة، كل ذنبه ذلك الأحمق، حفظه الرب، هو أنه كان مؤمناً، كان يؤمن بالحب، ولم ينفعه إيمانه في شيء، بل وكان سبباً لهلاكه، أو حياته، ربما يملك كل الحب الذي حلم به الآن، ولكن على الأقل ليس من أناس مزيفين مثلكم، هل تسمعين يا ماري؟ يا حبيبته المزعومة... ماذا برب محمد والمسيح دعاك لتخونيه؟ براءته؟ وماذا إن كان سطحياً؟ وماذا إن كان لا يحمل الجمال الذي تبحثين عنه؟ وماذا إن كان لا يملك ثمناً لسيارة باهضة ومنزل فاخر؟ وماذا إن لم يأخذك يوماً إلى مطعم يضع عماله فاتورة الطعام في كأس مرصعة بالفضة؟ وماذا إن لم يُخرج لسانه لكل صغير يمر أمامه ولا يداعب كل قط يعترض طريقه؟ ألا تكفيك رعشة يديه وهو يقلب أصابعك ويتحسس لمعان عينيك ليرتمي بشفتيه الداكنتين على أذنك الصغيرة يلقي عليها كل ما حفظه ليلة البارحة من أشعار غزل ومقطعات حين؟"



طأطأ رأسه صامتاً ثم رمى على النعش وردة حمراء بقوة  
وقال:

"إن لم توظفك هذه من سباتك لا شيء سيفعل."  
انتظر قليلاً محدقاً في صاحبه آملاً في حركة من جفنيه  
الباهتين وسط سكوت عميق سائد بين الحاضرين ودهشة على وجه  
القس، ثم مضى إلى سيارته دون أن يرفع رأسه وركب فيها وانطلق  
إلى حيث لا أحد يدري ولا هو نفسه يدري.

\*\*\*\*\*

- ثم ماذا؟ (سأل سارة التي كانت تجلس بجانبه في  
السيارة) هل سيزورني يوماً؟  
- في منامك ربما... (ردت سارة بنبرة محايدة لا باردة  
ولا دافئة) عندما تنام.  
- ألا يمكن أن يكون الآن في البيت في انتظاري على كرسيه  
المقابل للطاولة حيث يلقي جميع أفكاره الطفولية؟  
- لا أظن أن لديه القدرة على الجلوس معتدلاً على كرسي،  
ولا على الكتابة.  
- إذن هو على الكنبه الزرقاء يشاهد فلماً درامياً من  
إخراج كريستوفر نولان.  
- لا أظنه يملك القدرة على فهم أحداث فلم بتسلسل  
خيالي مثلي.



- إذن هو على سريريه في غرفتنا يستمع إلى البلوز ويقرأ  
مذكراتي على غير علم مني.
- مذكراتك لا تتلاءم مع موسيقى البلوز.
- إذن هو على سريرى القريب من النافذة يشاهد الغيوم  
ويتمنى زيارتها يوماً.
- لقد زارها فعلاً.
- ومتى تنتهي هذه الزيارة؟
- لديه أعمال أبعد من الغيوم، سمعت أنه يريد زيارة الرب  
ليسأله عن خطأ في الوجود.
- وهل يتحمل الوجود أخطاء أفضح من الإنسان؟
- أجل، هو الخطأ الصواب، الخطأ الذي لا يحتمل وجود  
أخطاء فيه حتى يكون صائباً.
- الحب؟
- ذلك ما يدعونه... سمعت البعض يسميه "الله"، عالماً  
بأن الله كامل ليكون حياً والحب أكثر نقصاناً من أن يكون الله.
- وماذا تظنين أنه سيقول للحب حين يزور الله إذا كان  
الاثنتان واحداً؟
- اسمك.
- سكت قليلاً ملقياً نظرات مليئة بفراغ داكن على سارة  
الجالسة بجواره، ثم رد متلعثماً كأنه يحاول تغيير مجرى الحديث  
دون تغيير الحديث:
- أي الأسماء تقصدين؟



- ذلك الذي يبداً بك وينتهي بك.
- وكيف سيحمله إن كان بعيداً عني كل هذا البعد؟
- ربما يتخلى عنك اسمك يوماً ما ويجري وراءه.
- وماذا ستفعلين حينها؟
- أهديك اسمي وتهديني تفاصيل وجهك وماضيك.
- وما الفرق؟
- أنت تملك وجهك وتاريخك ولكن اسمك يملكك، تستطيع أن تهدي ما تملك ولا تستطيع أن تهدي ما يملكك.
- إذن كيف ستهديني اسمك؟
- أنت سميتني وأنت تملك الاسم.
- وأنا خلقتك وأملك الوجه.
- وجهي تعود علي ولن يود مغادرتي، وماذا إن أردت أن تعيد ترتيبه؟ سيعود دائماً إلى شكله الأول، شكل الأنثى التي تحلم بها ولم تستطع أن تحظى بها يوماً.
- يقال إن للإنسان القدرة على خلق الأشياء في السماء بعد أن يحيا.
- حينها فقط ستستطيع أن تخرجني من واقعك الخيالي إلى واقعك الواقعي.
- يقال إن المرء يحشر مع من أحب.
- حينها فقط سترى صديقك مجدداً وتخبره بحبك الشديد له، دون أن تضع باباً بينكما.
- وماذا عنك؟ أنا أحبك أيضاً.
- سنعيش هناك، ثلاثتنا، لا يفرقتنا أبد ولا يدور علينا زمن.



- ماذا لو... ماذا... لو كنت أنت حقيقية وصديقي حي وأنا

الخيالي الميت؟

قال كلماته متردداً متلعثماً وشيء من الحرارة المزعجة يتغلغل في جسده وعيناه مثبتتان على الطريق أمامه... فاجأته نوبة من الصمت الغريب داخل السيارة، أدار رأسه بصعوبة ليحث رفيقته على الكلام، ولم يجد أحداً يجلس في المقعد المجاور له. بلع ريقه بغصة وهو يهمس بابتسامة صفراء:

"سارة؟ أين أنت عزيزتي؟ سارة؟ كيف ذهبت بغير إذن

مني؟ سارة؟ سارة؟..."

\*\*\*\*\*

دخل البيت متناقلاً وأشعل جميع المصابيح لعل قليلاً من الضوء يتسلل إلى ظلام نفسه، ارتدى مجهداً على الكنبة الزرقاء ونزع حذاءه ليضع قدميه على الطاولة التي تخلت منذ فترة على بقايا البييتزا والزجاجات الفارغة وأصبحت تعج بالكتب والورود المتناثرة التي أذبلتها فاجعة الأيام الماضية.

وضع يده على ظهر الكنبة كأنه يداعبها وفتش في ذهنه عما يخرج به من هستيريا الملل القاتل المختلط بالحزن والضياع والريبة، ثم همس وهو ينظر إلى المساحة الفارغة بجانبه مخاطباً زرقتها:

- كيف حالك اليوم؟ هل أصابك دفاء ما في غيابنا؟ هل

استمتعت برائحة القهوة التي التصقت بالكأس منذ يومين؟



- مللٌ مللٌ (أجابت الكنبة بغصة).

يأتي بوحشته الحنين.

ويطرق الأبواب فيّ على عجل.

"هل من سبيل؟" قال لي.

فأجبتة:

"ما من غدير لا يطل على بحاري"

فاعتراني كالصدي

فأقول: "لا..." ويقول: "هل؟"

أطرق صامتاً ثم التفت إلى التلفاز أمامه وقال:

- ماذا عنك؟ أنت تملك دائماً موضوعاً شيقاً للحديث فيه.

- مللٌ مللٌ (أجاب التلفاز بحشرجة)

فَعَلَ السُّكُونُ بِنْبُضِ قَلْبِي مَا فَعَلَ

وَأَسْطَرَّ الكَلِمَاتِ جَهْلًا

كَلِمَةً مِنْ بَعْدِ جَرَحِ

أَهْرَبَ نَحْوَ السَّمَاءِ وَلَمْ أَصِلْ

فِي وَحْدَتِي مَتَخَبِطِ

أَدَمِي الْوُجُودِ

لَأَلْبِسَ الكَلِمَاتِ مِنْ أَحْلَى الحَلَلِ / أَدَمِي الأَمَلِ

لَا أَشْتَهِي شَيْئًا

سِوَى حَلْمٍ يَضُمُّ وَسَادَتِي

كَالنَّوْنِ حِينَ تَضْمَعُهَا أَلْفَ الجَمَاعَةِ ...



واصل صمته ثم علا صوته قليلاً وهو ينظر حول الغرفة:  
 - هل منكم من يخفف حدة ما أصابني؟ أليس منكم من  
 هوراض بحكم ربه؟

- ألف شكر للإله (صاح قلم مركون على طرف الطاولة)  
 فرغم مأساتي الجميلة لم أزل  
 أروي على الجدران أسطر بهجتي  
 فتجيبني: "لا شيء يروى في غيابك...  
 أو حضورك

لا جديد سوى القديم

ولا جديد سوى الملل..."

تهدد قليلاً ثم قال في نفسه مغمضاً عينيه:

"ترى أين سارة؟ لماذا تركتني وحيداً في السيارة؟ ما  
 الخطأ في سؤالتي؟ الأسئلة الخاطئة في الواقع لا تدعو أحداً لتجنب  
 الحوار بل تجعله يرى في صاحب السؤال قلة فهم تمكنه من الفوز  
 عليه في جدال معه... الخطأ الكبير يكمن في صحة السؤال...  
 ماذا... ماذا لو كنت حقاً أنا الخيالي ومارلون لم يمت وسارة  
 حقيقية؟ ولكن كيف سأعرف الحقيقة؟ من سأسأل بعد هجرهما  
 لي؟ لن يعودوا أبداً! أظن... أظن أن علي اللحاق بهما لأعرف  
 الإجابة..."

أخذ ورقة بيضاء والقلم المركون على طرف الطاولة وهو

يتمتم:

"على الأقل - إن كنت حقيقياً - يجب أن يجد أحد جسدي



حتى لا يطرح عليه الكثير من الأسئلة"  
 انحنى قليلاً على الطاولة وأخذ يكتب:  
 " بين كل موت وموت أملك الوقت الكافي لأقتل أحلامي  
 وأحيا..."

بين مشنقتي ورقبتي أرى مساحة كافية لأخلص الحبل من  
 عبئي وأقفر في العبارة، أو أكون...  
 لا نرجس يضي على لون المساء قصيدة أو مسرحية أو  
 قصة أو بحراً..."

الوقت يكفي الجسر كي يعبر الجسر وينعدم في ذاته  
 والمساحة تكفي الليل كي يقبل نجمة أو طائراً أو صيفاً...

كنت أراقب موتي

وكنت أراقب موتي

وكان موتاي يراقبانني ويتساءلان في صمت:

- مازال حياً؟

- كذلك حظ من يعشق الموت.

- مازال يفتش عن نفسه؟

- بين نسبية الأشياء وحتمية المعنى.

- أليس المعنى أكثر اكتمالاً من أن يفهم؟

- المفهوم أكثر نقصاناً من أن يعني..."

وأنا أراقب ظل الصحراء (لماذا تبدو أكثر زرقة من الليل؟)

وأنا أمسح الغبار عن كتفي حتى يكون جديراً بحبل المشنقة.

وأنا أبحث عن مساحة كافية بين حلم وحمامة لتؤغل أكثر

في القصيدة..."



طوى الورقة ووضعها في جيبه، ارتدى حذاءه وخرج في اتجاه الخمارة، كانت الساعة قد قاربت التاسعة ليلاً. تمشى هائماً في الطريق مستمتعاً بكل ما يراه أو يسمعه، ملقياً ابتسامة هادئة على كل من يعترضه سبيلة. ألقى تحية حارة على القطة الجديدة التي أخذت مكان الأخرى على سور البيت المهجور وشعر مرة ثانية أنه للمرة الأولى يمشي في هذا الطريق الرائع، وأنه للمرة الأولى يحقق حلمه بالمجيء إلى كندا، ذلك الطقس البارد الذي لم يتعوده في بلده، تلك الفرحة العارمة التي يستطيع بعدها أن يموت مطمئناً عالماً بأن كل ما سعى من أجله في هذه الحياة قد اكتمل وعليه أن يسعى إلى راحة أخرى في حياة أبعد وأكثر دقئاً. كان عبير غريب يعطر الجو بحب كامن لا مثيل له، عبير يدعوه للرقص حتى الصباح، ولكنه اكتفى بالتمايل مع إيقاع خطواته حين لم يجد من يراقصه، إلى أن بلغ الخمارة. حيى النادل بضحكة صادقة وجال بعينيه حول الجالسين باحثاً عن العم جورج، وما إن التقت نظراتهما حتى هم إليه مهرولاً وهو ينطق اسمه كأنه يتعلمه، جلس قبائله مسرعاً وقال:

- ماذا تشرب؟
- كأساً من الجعة يا بني (أجاب بهدوء ودون تردد).
- لا لا! كفاك من الجعة، أطلب ما تريد.
- أي شيء؟
- أي شيء.
- مارتيني.



- أيها النادل! أحضر له ما يشاء من المارتيني.
- شكراً جزيلاً يا بني، ولكن لم كل هذا؟ لماذا تبدو سعيداً؟ صديقك مات منذ أيام وأنت هنا لتحتفل بشرب الخمر؟
- من قال إنني سأشرب؟ هذا الخمر لك مقابل طلب صغير أريدك أن تحققه لي.
- وما هو؟
- أمسك هذه الورقة ولا تفتحها الآن... ألم تقل إنك تعلم كل شيء عني أنت وجميع من في الحانة؟
- أظن ذلك...
- إذن تعرف بيّتي، أليس كذلك؟
- ذلك القابع في آخر الشارع؟
- أجل ذاك بعينه! أريدك أن تزورني هناك غداً صباحاً، ولا تنس أن تحضر معك الورقة التي سلمتك إياها الآن... ستجد الباب مفتوحاً، أدخل مباشرة وستجدني هناك في انتظارك.
- وما سبب كل هذا؟
- فقط افعل ما أطلبه منك، أرجوك.
- حسناً حسناً، سأفعل.
- قام بسرعة شاكرًا العم جورج والنادل على كل شيء حتى وإن لم يفهموا معنى الشكر ولكنهم بادلاه الابتسام والوداع محذقين أحدهم بالآخر - العم جورج والنادل ومطفأة السجائر - داخل غيمة من الحيرة بددها تفكير كل منهم أن صديق الحانة قد أصيب أخيراً بالجنون مما يعني أن لا خوف عليه...



دخل البيت، لم يشعر أنه نسي الأضواء جميعها مفتوحة واتجه مباشرة نحو المرحاض، جلس قليلاً على المقعد دون أن يفتح أزرار سرواله حتى. أرعبته فكرة أن لا فكرة طرأت على باله؛ جرب هذا الشعور من قبل، ولكنه توجه حينها إلى رفيقه في السكن حتى يغدقه بأفكاره السخيفة الصبانية الممتعة... إلا أنه الآن وحيد، جال ببصره في المكان الضيق حتى يؤكد لنفسه الفكرة غير أن طيفا راوده من بعيد، وقف دون خوف واتجه نحوه، وضع كلتا يديه على طرفي المرأة وقال:

- أنت ثانية؟ لقد أفزعتني، ربما.

- تشبهني قليلاً يا فتى، أو كثيراً (أردف الطيف في المرأة بابتسامة خبث) لكنك تبدو أكبر مني! ما نوع السنوات التي مضت عليك؟

- أنت تتكلم إذن! سنواتي قمرية، إثر كل ثلاثمئة سنة بشرية تمضي علي تسعة زائدة.

- لقد كنت ثملاً في المرة الأخيرة، قبل سنتين، فلم تسمع غير نفسك... يبدو لي أن سنواتك سماوية، مع كل سنة أرضية تمضي عليك ألف.

- ولكن العكس هو الصحيح! ذلك يجعلني أصغر.

- قوانين الرياضيات لا تطبق على مثلك.

- إذا عشت سنة واحدة في كل ألف سنة بشرية فسأبقى دائماً شاباً.

- إلا إذا كنت أنت البشري وهذه السماء.



- هذا منطق الأبد والحب، ولكن أين منطق العيش بينهما؟
- ماذا تريد منه؟
- أريد خلط الجميع.
- لا يمكن أن نعيش إلى الأبد، ولكن يمكن أن نحب إلى الأبد.
- وأنا أحب إذن أنا حي.
- وماذا تحب؟
- أحب نفسي.
- إذن لست حياً.
- وكيف أحيأ؟
- عليك أن تموت لتحيا.
- وهل يموت الحب معي؟
- وهل يحيا هوفي الأصل إلا إذا مت؟
- أعرف هذا... أردت التأكد فقط.
- ماذا ستفعل بنفسك إذن؟
- سأكسر المرأة، مرآتي، ماذا عنك؟
- سأكر المرأة، مرآتي.
- ماذا لو انكسرت معها؟
- ألا ترى أنني طيفك؟ الأطياف لا تكسر، بل تكسر صاحبها وتخلد.
- ألا ترى أنني حقيقتك؟
- لست حقيقياً إلى ذلك الحد... جزء منك مات والبقية وهم.
- الليلة أحيأ يا صديقي... الليلة أحيأ...



ترك صدى كلماته ترن في آذان صورته على المرأة وخرج من عنده إلى المطبخ، أخذ سكيناً واتجه نحو الكنبة مداعباً حده بابتسامة لطيفة. جلس هناك واضعاً رأسه على ظهر صديقه الزرقاء بارتعاشة غير مسبوقه، ودون تفكير ولا إطالة مد ذراعه الأيسر دون أن يغير شبراً من جلسته، وألحق بها يده التي تحمل السكين، وضعه على شريانه القريب من كفه ومرره عليه بقوة حتى تثاررت الدماء على الكنبة المسكينة التي كانت تشاهد الجريمة كاملة دون أن تملك أي يد لإيقافها. شعر بوخزة خفيفة أطبق على إثرها شفثيه بقوة ثم أغمض عينيه كي لا يوجع السقف بالتحديق إليه وهمس كأنه كان يخاطب كل ما كان قابلاً حولته:

"ما أسوء طعمه هذا الموت، وما أحلى مرارته في لساني. هذا الموت، هذا الفناء إلى الوجود، هذا الطريق إلى العدم. كم هو بارد، كم هو دافئ هذا الموت. أستطيع سماعه، أستطيع سماع كل خطوة وهو يقترب في ريبة مني، هذا الإيقاع الغريب المغري الذي يدق قلبي ويزلزل كياني.

كأنني ألأمس ملك الموت، أشعر بثقل يديه تعانقني من الخلف، أشعر بمخالبه الباردة تداعب رقبتني العارية. ولكنها دافئة مغالبه، ولكنه دافئ هذا البرد؛ في النهاية هو ملك، في آخر المطاف هو أبيض... مهما كان لونه أسوداً سيظل أبيضاً، مهما كان حضنه بارداً سيظل دافئاً. إنني ألأمس أنفاسه الثقيلة من خلفي، تلك الأنفاس الملائكية تشعرنني بالحياة وبالاحتراق، تشعرنني بالموت وبما بعد الموت.



ما هذا السكون الذي خيم فجأة؟ ما هذا العدم الذي أطل علي؟ ألم شديد يعترضني، لا أستطيع المقاومة... لا أريد المقاومة! لا أريد الفكاك! لا أريد الهروب! أبحث عن النقطة البيضاء التي تدخلني إلى عالم البرزخ، عالم الهدوء والصحو... تلك النقطة التي سمعت عنها الكثير... أجول في غرفتي بعيني المغمضتين، لا شيء غير السواد، الألم يزداد! لا أرى الراحة الأبدية المزعومة، لا أراها اقتربت من الاقتراب...

أقدامي لوح من الجليد، أريد تحريك أصابعي... لا لا! لا أريد تحريك شيء، لا أريد المقاومة، لا أريد إثارة هذه الرمال المتحركة... ماذا أفعل الآن؟ أصرخ؟ ولكن فيم يفيد الصراخ؟ إلى أي مدى يمكن أن يصل صوتي؟ لن يسمعه الأحياء، ولن يوقض الأموات! لأنني... فقط لأنني لست منهم، لست من هؤلاء ولا هؤلاء... أنا بينهما، أحاول التمسك بهما معاً، ولا أريد البقاء بينهما... أنفاسي تتقطع، لا أستطيع التنفس، لا أستطيع إدخال الهواء إلى رئتي، أريد أن أشعل سيجارة. هل...؟ هل أطلب من الموت أن ينتظر؟ أن يمهلني قليلاً من الوقت حتى أنهى سيجارة ما قبل النوم؟ يا ترى... كيف ستكون سيجارة ما قبل النوم الأخير؟ مختلفة ربما... مشابهة لكل ما دخنته ربما... لا لا! لن يسمح لي الموت بسيجارة أخيرة، سأجتز آخر ما دخنته خلال السنوات الماضية...

أشعر بعطش شديد، أريد أن أشرب شيئاً بارداً، الجو أصبح دافئاً فجأة... ماذا يحصل لي؟ لا لا! لا أريد الموت الآن! إنه



أبرد وأدفاً مما كنت أظن... أريد الفكاك! ولكن... لكن إلى أين؟  
ربما إلى الطريق الأقرب؛ الموت أقرب لي الآن من الحياة... ولكن  
كيف أعرف؟ ربما هذه فقط المرحلة الأولى. ربما سيأتي سرب  
من الملائكة؛ الملائكة الصغار البيض الطيبين، ربما سيحلقون  
حولي، ربما سيمشون حولي، أو ربما سيسبحون! كل شيء جائز...  
ربما يحملون سياطهم في مرحلة ما، سيبدوون بجلدي لا ريب...  
لم أعد أستطيع التحمل! لم أعد أشعر بالألم في رأسي، وهذا ما  
يخيفني أكثر! ذلك الألم كان يشعرني بوجودي... لم يعد هناك بد  
من المجازفة! سأقف عند محطة الموتى، وأنتظر أول عربة قادمة  
لتأخذني أخيراً إلى الحياة."

\*\*\*\*\*

فتح عينيه فزعاً على صوت ينادي بلطف وإلحاح:  
"نادر... نادر... حبيبي! أفق إن الساعة تجاوزت التاسعة...  
عدت إلى عادتك بالسهر إلى الفجر؟ هيا بني العزيز لقد حضرت  
قهوتك..."

انتفض جالساً وهو يلهث:

- ما الأمر؟ ماذا يجري؟

- ماذا تعني بهذا السؤال؟ ما الذي يمكن أن يجري؟

- أه... أمي... أفزعنتي

- اللطف على ابني الحبيب! هل تريد أن أحضر لك قهوتك

إلى السرير؟



- هل هو يوم الأحد؟

- طبعاً! منذ متى تنسى يوم عطلتك الأسبوعية؟ هل أنت

بخير؟

- أجل على أفضل ما يرام، صداع خفيف... سيزول قريباً.

- لقد وجدت نافذتك مفتوحة، ربما هو بسبب البرد...

سأحضر دواء مع القهوة.

خرجت الأم متجهة نحو المطبخ تاركةً ولدها في حيرة

متسائلاً:

"ماذا حصل البارحة؟ لماذا أشعر بكل هذا الحزن يمزق

قلبي؟ أذكر أنني نمت باكراً! على الساعة العاشرة ربما... ما الذي

جعلني أقوم الآن متأخراً؟"

التفت إلى طرف السرير وابتسم قائلاً بدفء:

"سارة حبيبتي! أين كنت البارحة؟ ماذا جرى تحديداً؟ أه!

حلمت بك على فكرة... كنت جميلة جداً وحقيقية كما أنت الآن...

لقد كنا... لقد كنا..."

حك رأسه قليلاً وبعض الصور الخاطفة تراوده من حلم

الليلة الماضية والألم في رأسه بدأ يتزايد مع تزايد دقات قلبه حتى

أخذ يردد:

- مارلون... مارلون كوليني... العم جورج... صوته يرن

في رأسي! كندا! سارة... مارلون... كندا...

- ماذا قلت يا بني؟ لم أسمعك جيداً... ما بها كندا؟

(قالت الأم مبتسمة وهي تدخل بطبق عليه قهوة وكأس ماء بجواره



علبة دواء وخبز محمص مغطى بالزبدة)

- أمي؟ ماذا حصل للكنبة؟

- الكنبة؟ ماذا يمكن أن يحل بها؟ هي في مكانها أمام التلفاز.

- لا لا أمي! أقصد الكنبة الزرقاء.

- تلك الكنبة القديمة؟ مازلت تذكرها؟ ألم نقم ببيعها حين توفي والدك لتتحصل على بعض النقود قبل أن تبدأ عملك بالمقهى؟

- آه أجل أجل... تذكرت الآن...

- ما بك يا بني؟ لا تبدو بخير... (قالت في حيرة وهي تضع الطبق على الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير).

- لا شيء أمي... أعطيني يدك أقبلها.

- ليت كل الأبناء في العالم مثلك... مازلت تقبل يد أمك وأنت في الرابعة والعشرين من عمرك.

- وهل ينقص العمر حباً؟ لا يمكن أن نعيش إلى الأبد، ولكن يمكن أن نحب إلى الأبد.

- ما أجملها من فلسفة (قالت كلماتها مصحوبة بضحكة من عينيها وهي تغادر الغرفة).

دقق النظر في خطواتها وهي تبتعد وقلبه يدق بحب كأن حياة جديدة قد عبرت خلاله... أشعل سيجارة وأخذ يترشف القهوة معها وهو يهمس:

- ليت كل النساء كأمي يا سارة.



- أنت صنعتي منها، نسخة مصغرة منها لا تتحدث بغير اللغة الإنجليزية والفرنسية أحياناً، ذلك الفرق بيننا.
- ولكنك أطول قليلاً وشعرك أصفر.
- امم...
- هل تغارين من أمي؟
- ماذا ستفعل اليوم؟
- لا أدري، ربما أجلس قليلاً على شاطئ البحر أو في أحد المقاهي بصحبتك.
- لماذا لا تأخذ أمك مكاني؟
- هلا اكتفيت من هذا الكلام الذي لا يحمل معنى؟ إنها أمي! لا أحد يأخذ مكانتها حتى لو كانت سيئة، فما بالك وهي بهذه الحنية وتعاملني كطفل في الرابعة ناسية العشرين التي مرت بعدها.
- لا يهم... لك ما أردت.
- داعب شعرها وهو يسحب آخر نفس من السيجارة ثم قام واضعاً في فمه لقمة من الخبز واتجه إلى خزانته. ارتدى ملابسه الرياضية الخاصة بيوم الأحد؛ تلك التي لم تره يوماً يجري أو يقذف كرة أو حتى يتنفس بشكل صحيح. عاد إلى الطاولة حيث شرب الدواء فقط من أجل إسعاد أمه وخرج من غرفته، قابله منظر الطاولة الملاصقة للكنبه بثلاثة سيقان خشبية وساق حجرية تسندها، تسمر لحظة ورنين موجه أخذ يعصف بذهنه وهو يتذكر أحداثاً من حلمه الأخير. تملكته رعشة ثقيلة وطافت به الدنيا حتى



استند إلى الحائط كي يستقيم ثم أخذ يتمتم ثانية:  
 "ما الأمر؟ ماذا جرى؟ مارلون كولينى... الخمارة...  
 كندا... موت! حبا! موت..."

أخذ نفساً عميقاً يعبق برائحة الليمون الذي يعطر الجو  
 وتماسك حتى لا تلاحظ أمه أي شيء من تصرفاته الغريبة. اتجه  
 نحو المطبخ أنى زرع قبلة على جبين أمه ثم غادر البيت مخلفاً إياها  
 تدعو الإله أن يجعل سعادته بوسع الدنيا. توقف قليلاً في منتصف  
 الدرج كأن ذلك الدعاء سحبه من قميصه إلى عالم آخر، عالم  
 بأبعاد لا يعرفها، في كون مواز يسمى الحلم، ولكن ذلك الحلم لم  
 يكن فيه أكثر من ثلاثة أبعاد مكانية وبعد زمني؛ لا يتذكر أنه قام  
 خلاله بالسفر عبر الزمن ولا بالتلييبورت، كل شيء كان واقعياً حتى  
 مشاعره، فرحه حزنه، بكاءه، حيرته، وحدته، الجنازة الداكنة،  
 وذلك المستشفى الأبيض الأسود... يتذكر كل شيء الآن كأنه  
 حصل في الواقع.

"لم يكن حلماً"

همس في أذنه وهو يجلس على صخرة مطلة على البحر. لم  
 يكن هناك أحد بجواره على مدى كبير برغم الطقس الجميل هناك.  
 أخذ قليلاً من الحصى وهم يرميها برفق كأنه يدفع بها الموج من  
 التقدم أكثر، أو كأنه يصور فيها أفكاره ويرميها بعيداً عنه بلباقة  
 حتى لا تغضب أفكاره منه.

أعاد العبارة على نفسه في صيغة سؤال:

"ماذا لو لم يكن حلماً؟ ماذا لو كان ذلك أنا؟ ولكن متى



ذهبت إلى كندا وقضيت فيها سنتين؟ لا لا! عشر سنوات كاملة!  
 ما الذي جعلني أقيس على الوقت الذي قضيته مع مارلون زميلي  
 في السكن؟ عشر سنوات قضيتها هناك، أي منذ سن الواحدة  
 والعشرين... ومن هو مارلون؟ ولماذا لا يشبه أحداً من الذين  
 التقيتهم طيلة حياتي؟ ولماذا كان في سني حين التقيته أول مرة؟  
 ولماذا أكن له كل ذلك الحب؟ حتى في الحلم لم أكن شاذاً جنسياً!  
 ولكن لا أذكر أنني أحببت أحداً بذلك القدر! رأيت فيه نفسي ربما،  
 رأيت فيه ما ينقصني... يا له من حلم لا يشبه الأحلام. يا له من  
 حلم لا يشبه الواقع."

أشعل سيجارة وتلفت حوله بخفية على أمل أن سارة  
 حبيبته ليست هناك ولن تأتي قريباً، أراد لحظات مع نفسه،  
 لحظات حقيقية يفهم فيها وجوده، غايته من وجوده وغاية الوجود  
 منه. اقترب أكثر من البحر -صديقه القديم- حتى لامس مياهه  
 بينانه وصرخ:

"يا رب! يا الله! هل تسمعي؟ لا شيء يفصلنا الآن... لا  
 حجاب بين العبد وربه أمام البحر! أخبرني إذن! أنت أعلم مني...  
 من أنا؟ ما أنا؟ أنا الحقيقة أم الوهم أم ما زلت عالقاً بينهما  
 كما عهدتني يوماً؟ أنا الحلم أم الواقع أم هي مراوغة اللاشعور  
 بأن قد يدل على عكسه؟ أنا ميت أم حي أم هذا هو البرزخ الذي  
 كذبوا علينا بشأن ألوانه؟ أنا أنا؟ (أخفض صوته حتى لقد كاد  
 يخفيه ورمى السيجارة برفق في الماء) أنا أنا؟ أهذا جسدي؟  
 أهذه روحي أم روحك؟ هل أدقق النظر في المرأة حتى أراك يا



إلهي؟ أأخذش وجه البحر حتى تطلع منه تفاصيلك؟ أين أنت؟ قل لي! علّمت نفسي أنك في كل مكان وزمان، أنت الذي لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان... هل كنت مخطئاً؟ أنا لا أخطئ أبداً! كيف أخطئ وفي داخلي نفس الله؟ هل أضعتك يوماً حين غضضت عليك بصري والتفتت إلى نفسي حتى أراك في؟ ألا تذكر أنني عدت للبحث عنك بعد عامين وحلم؟ هل انتظرتني لعامين وطال عليك الحلم؟ لا لوم عليك وحقك، اللوم كل اللوم علي! أنت تملك الكثير مني وليس لدي سواك منك... هل تذكر حين أهديتك روعي يوماً؟ غضبت مني حينها لأنني أهديتك ما ليس لي... وماذا أملك أنا حتى أهديك ما يليق بمقامك؟ هل تسمعني الآن؟ هل تعرفني؟ هل أشق ويريدي لأراك فيه أم يكفي أن أراقب صفحة الماء فأرى وجهك في وجهي؟ ماذا لو أعجبت بوجهك في وجهي وأصبحت نرسيسا؟ ماذا لو أصبحت مغرورا بجمالك؟ ماذا لو أعماني نورك وتناثرت الجبال من حولي؟ كيف سأشاهد البحر بعدها؟ الله! ما أجمل اسمك، ولا أعني المجاملة، إنما أرى في اسمك من معاني الحب ما لا تملكه الكلمة بذاتها...

هل لي أن أسألك يا الله؟ بالطبع يمكنني! وهل للرب أن يرد سائلاً أو للمحب أن يرد حبيباً؟ أجبني بحقك، كيف انتهت القصة؟ الحلم/الحقيقة؛ هل مت فعلاً؟ هل تغمدتني برحمتك؟ هذه إذن هي رحمتك؟ ماذا عن صديقي مارلون؟ لماذا لا أراه؟ ماذا عن العم جورج؟ هل قام بدفني أم كان أكثر ثمالة من أن يتبين موتي وجلس معي يرويني قصصاً صامتة عن عدميته في عدميته



التي تخرجه إلى وجوده؟ ماذا عني؟ هل أجدني إذا انعدمت عن  
 عدميتي؟ إذا أصبح الوهم وهماً، هل يفضي ذلك إلى حقيقة؟ وهل  
 الحضور هو الغياب عن الغياب؟ أنا جزء منك وأنت الكل، ولكن،  
 إذا تجزأ الجزء لماذا لا يفضي إلى الكل؟ وإذا اكتمل الكل لماذا لا  
 يتجزأ الجزء؟ حتى لو كان الجزء هو الكل، ولا يكون الجزء كلاً إلا  
 إذا لم يكن معه جزء مشابه أو مكمل، ولكن لماذا لا يعطيني هذا  
 الحق في أن أسمىك جزءاً؟ جزءاً من نفسك، ذلك الجزء الذي  
 يمثلك كاملاً؟ ماذا عني إذن؟ ماذا عن البحر؟ نحن جزء منك  
 ولكن كمالك لم ينقص، فهل هذا سبب كاف لأراك في نفسي؟ في  
 زرقة البحر؟ ولكن لا لون لك، وإذا رأيتك في نفسي لماذا لا أراني  
 فيك؟ وأين أنا من هذا؟ أين أنا منك؟ فيك أم خارجك؟ هل أنا  
 في رحلة قصيرة خارجك حتى إذا توفيتني انتميت إليك مجدداً؟  
 هذا إذن! هذا هو انتمائي! أنا أنتمي إليك! بعد سنوات من البحث في  
 تفاصيل كلامك ووجودك عن انتمائي، عرفت الآن فقط أنني أنتمي  
 إليك؟ أنت الذي لم أفتش فيك مرة!

يا الله! هل أخبرك شيئاً؟ هل تذكر حين كنت أرجو منك  
 كل الرجاء أن تخرجنا منها سالمين؟ أعني بلدي، تونس... كنت أود  
 منك أن ترمي بي في كندا، ولكن هل أخبرك سرّاً؟ لقد زرتها، لا  
 أعلم إن كنت زرتها في حلم أفقت منه الآن أم إن كان ذلك حقيقة  
 وأنا في حياة أخرى الآن، ففي كل الحالات لم أجد فيها شيئاً يستحق  
 تعبي من أجلها، لا شيء مما تمنيته، لا شيء مما جعلني مشتاقاً إليها  
 من قبل أن أعرفها ولا شيء مما توقعته، غير البرد الشديد... ولكن



تعلمت شيئاً، هل تعلم ما هو؟ حتى في كندا، حتى في بلد الأحلام،  
الناس يموتون! أحببت فيك وباسمك في كندا، وحببي فيك غادر  
كندا والعالم كله إلى حياة أخرى، حياة عندك، تلك الحياة التي  
اخترتها لنفسني بمحض إرادة سكين المطبخ الذي داعبت به  
شرايبيني... وها قد أتيت باحثاً عن حبيبي فيك الذي سأحشر معه...  
يا الله؟ أين مارلون؟"

وجّه نظرة بين البحر والسماء والأفق والصخور من حوله  
ورمل الشاطئ باحثاً عن إجابة ولكن شيئاً لم يتحرك من مكانه ولم  
ينطق منهم ناطق بإجابة تشفي فضوله. وقف بابتسامة انهزام متجهاً  
كعادته إلى حيث لا يدري، أخذ يتباطأ ويتبخر على رمال الشاطئ  
مرتجلاً بصوت مرتعش على ضفة البحر كأنه يواسي موجة ما:

"متعثراً بكأبتي

أهوي على قطع الرمال أعبها

أحصي عليها خيبيتي وتشردني:

من حبة ذهبية الألوان

-كالصبح الوليد- دهستها دون الشعور

لحبة تضوي كما البلور في عتمات شمسي

حبة حمراء مثل نزيف دمعي بين آهات وصمت

حبة أخرى تهاوت من يدي

كأنني قد شلتها عن غير قصد

أورأتني حائراً فتمايلت

وتسللت صوب انكساري قاصده



متعثرا بكأبتي  
 لم أدن بعد من الرمال  
 وفاجأتني موجة  
 لم أدر كيف تشجعت وتقدمت نحوي  
 وقد كسرت مسار الموج فانكسرت أمامي  
 ما لمحت قدومها  
 أو ربما ما شئت أن أجري بعيدا بعد مرأها  
 لكي لا أكسر الباقي من الذكرى  
 التي أخرجتها ووضعته بين اليدين  
 أشاور المنسي منها في الغياب لموعد  
 ورأيتها حين ارتأيت الموج يسعى نحو أوراقى وأفلامي  
 وتسعى موجة نحو انهيارى  
 عليها قد تبصر المأسات في وجهي يتيما شارده  
 متعثرا بكأبتي  
 لم تدن من الموجة الكبرى  
 وضاق الصدر ذرعا  
 والمكان بما يضيق القبر بالقاسي البخيل  
 لقد ضللت على الشواطئ  
 بينما كنت وظلي نصنع الوقت/المآسي  
 من طويل قامة فينا؟  
 ومن منا القصير؟  
 وجدت أن الظل أطول مرتين



وأن شمس الليل قد بدأت تقوم من السبات  
 طرقت باب العين فالتحتفت وقالت:  
 فلنعد للبيت إن البحر لا يرضى بنا أهلاً  
 ولست بصحبة الموج العتيد  
 وصحبة الرمل العنيد بساعده  
 فلنرتشف حزن المساء  
 فإني - ما دام ليلى لا يغادرني -  
 فإني خالده"

\*\*\*\*\*

أمام محل بيع الثلجات، كان يقف متسائلاً عن سبب  
 قدومه. تذكر أنه لم يزره منذ سنوات، ولكن طعم الثلجات لم  
 يغادر فمه منذ ذلك الحين، الفرق الوحيد هو أنه في ذلك الوقت  
 كان يملك ما يكفي من المال حتى يشتري مخروطاً أو كأساً يعج  
 بمذاقات الفستق والعلكة والشوكولاتة... تردد قليلاً ثم دخل بسعادة  
 طفولية غريبة عنه، لم تزعه صورة والده الراحل وطيف طفولته  
 واقفان أمامه في الصف يختاران ما لذ وطاب لهما بضحكات تعبر  
 الشارع والسحاب حتى تبلغ السماء. كل ما كان يشغله وهو ينتظر  
 الوصول إلى مثلجاته ببراءة هو رغبته الشديدة في حضور الحلم  
 إلى واقعه المليء بالألوان السعيدة في المحل واللون الرمادي  
 الصامت في عينيه، كان يود لو أن مارلون كان بصحبته هناك حتى  
 يرى التماع عينيه وهو يقفز من الحماسة حتى يتجاوزها في الصف



ويشتري المتلجات قبله؛ لو أنه كان قادراً أن يرمقه بتلك النظرة الباردة كتذكير بأنه يفوقه سناً، تلك النظرة التي تخفي تحتها كل السعادة والحب لوجود رفيقٍ باسم مارلون كولينبي بصحبته. كان يود لو أنه ترك لصديقه الصغير حرية الاختيار لكليهما بينما يذهب كرجل كبير حتى يدفع ثمن ما اشترى. لكن صوتاً أحمقاً قاطعة:

- كأس أم مخروط؟

- أه... كأساً من فضلك، أعطني كأساً كبيرة الحجم.

- ماذا أضع فيها؟ أي النكهات تريد؟

- امم... فانيليا، كرزا، وقليلاً من الفستق، أو كثيراً (همس)

بابتسامة خبث)

أخذ المخروط واتجه نحو البيت حتى يأكله في الطريق. كان يبتلع مع كل لعقة غصة سببها رغبته العارمة في أن يذيق صديقه الذي توفي في حلم قبل أن يحيى معه لحظة حقيقية، وفرحه بهذا الطعم الممتع الذي غاب ولم يغب عن لسانه طويلاً، وحنيناً لطفولته التي قضى نصفها إما واقفاً في هذا المحل أو متوسلاً لثمن كأس من المتلجات، وحنناً على أمه التي فقدت زوجها ومعيها أكثر من حزنه على والده الذي غادر كليهما.

ما إن وضع الكأس الفارغة في الحاوية حتى أشعل سيجارة، رفع رأسه ليرى بدرًا مكتملاً يسرق ضوء النجوم من حوله كي يحتكر لنفسه شرف إنارة الأرض. حدق مطولاً وهو متكئ على حائط في حي فارغ لا يعرف حتى كيف وصل إليه، ثم أنشد بصوت مسموع:



"قمر ثقيل اللون  
 يكتب بالأنين وجوده  
 يتنهد الذكرى  
 ويرسم حلمه  
 أملي عليه الحلم  
 أملي وحشتي  
 وقصائدي لقصائدي  
 يا ساهرا تلقي  
 على الصبح ابتساما  
 لا يراه... اكتب  
 للأمى:  
 يا غيا با ليس يمحوه الغياب  
 ويا شهيدا لم يمت  
 يا راحلا  
 بالشوق يغسله السراب  
 يدلّه ويضيعه  
 ويعيش في صحراء قلبي  
 لا يضل عن المسير  
 ويقتفي صحراءه  
 في كل غاب...  
 للمدينة قل:  
 تعبت من الرجوع



ومن جمود اللافتات  
 ومن دموع الليل  
 من ليل الدموع  
 تمددي  
 كوني بوسع الحلم والصحو  
 اسلكيني  
 إنني سبيل الوصول  
 وإنني سبيل الضياع  
 وإنني صمت المسافة  
 والشموع...  
 لحيرتي:  
 كوني  
 فإني لم أنم  
 من ليلتين  
 وكان ينقصني ليؤنسني  
 سؤال  
 أو مجال للسؤال  
 ورقعة سوداء  
 أمضي مثل نرد نحوها  
 ما بين عين  
 وانغلاق العين...  
 لي قل أيها القمر المقدس:



يا أنا  
يا من يقول إذا انحنى فجر  
تخلف هذه الليلة  
فقط  
إن السماء الآن  
تحترف السواد  
لتحرق الأحلام  
والألوان تزداد احتراقا  
حين يبدو الليل  
أكثر ظلمة  
والعاشقون على الطريق  
أقل إصرارا..."

في البيت كان المشهد غريباً بعض الشيء، السقف نظيف،  
الأثاث مرتب، لا توجد جوارب على الأرض، الغرفة لا تعج برائحة  
البيتزا والخمر... وكأن مارلون كان هنا منذ لحظات، أو مر صدفة  
فقام بتنظيف كل شيء، أو هكذا فكر لبرهة قبل أن يتذكر وجود أمه  
في المكان.

استلقى على سريره متجنباً نداءاتها المتواصلة للعشاء  
وأسألته اللامتناهية عمّ إذا كان جائعاً... في الواقع لم يكن يشعر  
بأي جوع أو عطش، كان فقط يملؤه حزن لم يتبين سببه وبرد خفيف  
لم يحدد مآتاه.



أغمض عينيهِ باحثاً لنفسه عن حيز للنوم ولكنه تذكر  
حبيبته، التفت إلى يمينه ليجد سارة مستلقية بجانبه مشدوهة  
النظرات نحو السقف... داعب شعرها ومرر يديه على خديها ثم  
قبلها وعد إلى وضعيته السابقة دون أن يسألها عن سبب وجومها  
وحيرتها البادية كأنها تعمدت إظهارها حتى تحظى باهتمامه  
ومواساته.

مضت دقائق قليلة دون أن تظهر أي نية للنوم على القدوم  
قريباً، عدل جلسته وأشعل سيجارة دون أن يظهر أي تعبير على  
وجهه البارد:

- سارة...
- نعم؟
- ما الذي يشغل فكرك؟
- لا شيء...
- تكلمي.
- دعك مني، لست في مزاج ملائم.
- أنت لا تعرفين سبب حزنك.
- ماذا قلت؟
- أنت فقط حزينة لأنني حزين، أنت انعكاس لم أحسّ.
- أليس من حق الحبيبة أن يشغلها حزن حبيبها؟
- لا يشغلك شيء! أنت انعكاس لمشاعري، لا غير...
- لا غير؟ ألست حبيبتك؟
- لست إلا طيفاً صنعه خيالي ليتجنب وحدته.



- وقد نجحت في مهمتي! أليس كذلك؟
- ذلك ما كنت أظن... ولكنك في الحقيقة فشلت فشلاً ذريعاً... أنت السبب الأول والأخير لوحدي
- وهل أخذت بشعرك أو لحيتك حتى لا ترى غيري؟ لا أذكر أنني منعت عنك شيئاً.
- أريدك أن ترحلي.
- لا يا نادر! لا تريد رحيلي، أنت تريد حزنك! لا تستمتع إلا بوجوده... أنت تحب تعذيب نفسك. تحب وحدتك. وتحب أيضاً أن تلقي اللوم على أناس وأشياء لم يكن لها يد في ما تعانیه... إنما تملك أنت اليد الطولى في ما تحس وما لا تحس، في ما تملك وما لا تملك، في ما يحزنك ويسعدك... أنت وحدك اخترت طريق الحزن دون السعادة.

- وهل تخبريني بما لا أعلم؟ هل نسيت أنني أكلم نفسي

الآن؟

- أنت تعترف إذن بأن الحزن يلم بك لأنك اخترته شعوراً مناسباً وأن الوحدة تحيط بك لأنك اخترتها رفيقك.
- بل لأنني اخترتك أنت رفيقة لي.
- أنت تحبني! تحبني لأنك تحب نفسك.
- ولو كنت أحب نفسي هل كنت لأرضى لها هذه الحياة؟
- ولا ترضى لها غير هذه الحياة! لأنك تستمتع بالحزن! هذه فطرتك يا عزيزي... عندما شاهدت أول فلم بوليسي تقمصت دور القتيل، عندما قرأت أول رواية تقمصت دور الضحية، عندما



رسمت أول خربشاتك الطفولية تقمصت دور القلم الأبيض، وحتى عندما درست الحساب في المدرسة تقمصت دور الصفر واخترته رقماً مفضلاً لتكون مثله

- الصفر أقوى الأرقام

- ذلك ما يظنه هو... علم نفسه الحياء، ظن أنه الحد العظيم الفاصل بين الموجب والسالب، ولكن أتدري؟ الصفر هو أصغر الأرقام السالبة، عكس ما يقال، وهو أضعفها، وفي ذلك يرى قوته الوهمية

- أكتفي بالوهم لو كان مناسباً لي.

- لكنك لم تكف بي وهماً.

- اكتفيت بصحبتك حتى في حلم تافه، حتى عندما صنعت صديقاً مناسباً في حلمي لم أتخل عنك، لأن ذلك مكانك المناسب، الحلم لا غير.

- حتى في حلمك صنعتني لأنني أذكرك في وحدتك وحزنك، حتى في حلمك تقتلك السعادة، حتى الأيام الرائعة التي قضيتها هناك مع مارلون أنهيتها بموته وغيابي وانتحارك.

- وما دخلي أنا في الأحداث التي تجري في أحلامي؟

- وما دخلي أنا في المأساة التي تجري خلال واقعك؟

هل منعتك يوماً من مصاحبة فتاة أو مشاهدة مباراة كرة قدم في المقهى مع زملاء الدراسة؟ هل منعتك من اختيار عمل جيد أو دراسة بمستوى ذكائك أو الجلوس مع أمك على طاولة الطعام؟ لقد كنتُ صفراً في حياتك، كما تريد أن تكون أنت.



- لكنني فعلت ما يشعرنني بالسعادة في الحلم، غير أن السعادة لم تدم.

- وذلك ما كنت تريد... أحياناً يفقد الحزن قيمته ولا يشعرك بلذته، لذلك تصنع لنفسك سعادة زائفة تعلم أنها ستنتهي وتغض عنها الطرف، حتى إذا ما انتهى موسم السعادة شعرت بلذة النصر بحزن أعمق، على الأقل تصنع سبباً لها حتى يتسنى لك سؤال نفسك واكتشاف أن لا سبب يدعو إلى الحزن فتسعد والعياذ بربك، لا تريد أن تصل إلى هذه المرحلة...

- بلى! أريد! فكرت وعرفت أن كأبتي لا تحمل معنى فقررت التخلي عنها وعن أي شيء سيدكرني بها. قررت التخلي عنك والعيش مع بقية الناس والتعرف على أصدقاء وحببية وقضاء عشية يوم الأحد مع أمي نشرب الشاي. قررت أن أحصل على عمل يليق بي، وربما أنهى دراستي لأجمع ما يكفي من المال كي أعوض أمي عما فاتها منذ رحيل أبي وأعوض نفسي، وربما... ربما أذهب إلى بلد يفهمني أكثر من تونس، كندا مثلاً... وها قد بدأت بتحقيق ما أطمح إليه منذ هذه اللحظة.

- إذن تريد مني أن أهجرك؟

- تلك الخطوة الأولى.

- وهل سيعيد لك ذلك مارلون؟

- ماذا قلت؟

التفت إليها بسرعة ولكنه لم يجد غيره في الغرفة، ارتعشت شفاهه قليلاً ثم أخذ يصيح:



"ماذا قلت؟ سارة؟ أين أنت؟ ليس من عادتك مقاطعة الحديث، لم ينته الحوار بعد... سارة! ما دخل مارلون؟ ماذا تريد أن تقولي؟ أنت فقط غاضبة لأنني تخلت عنك! لن أبالي... إذهبي حيث تشائين ولا تعودي مجددا... أنت لم توجدي إلا في خيالي على كل حال..."

تذكر فجأة أنه وعد نفسه بالتغيير إلى ما يسمى الأفضل والابتعاد عن كل ما يحزنه، فرسم ابتسامة دافئة على وجهه وتوسد كفيه كأنه يلقي عليهما كل ثقل أفكاره ثم أغمض عينيه ناسياً البرد الذي يعتري جسده وغاب في نوم عميق.

\*\*\*\*\*

فتح عينيه ببطء وثقل كأنه يعتصر الصحو اعتصاراً. جال بعدقته في المكان وشعر بريية وخرابة حيث حل نظره؛ كل شيء كان أبيضاً، وكل المصاييح كانت تسطح بشدة موجهة بريقها نحوه. لاحظ عدداً من الأشخاص يتقدمون نحوه بابتسامة عريضة وثياب بيضاء تغطيهم. ارتبك قليلاً ثم حاول أن يصيح ولكن حباله الصوتية كانت أضعف من أن يعلو صوته كثيراً:

- من أنتم؟ أين أنا؟

- حمداً للرب على سلامتك.

- لماذا تتحدثين بالإنجليزية يا أنسة؟

- أظن أنه في حالة هذيان خفيفة، دعوه يرتاح (قالت

بلطف موجهة كلامها نحو الواقفين بجانبها).



- أين أنا؟ (سأل بالإنجليزية).
- في المستشفى، لا تقلق، أنت بخير.
- مستشفى؟ كيف وصلت إلى هنا؟
- لقد أتى بك شيخ كبير، إنه في الخارج في انتظارك.
- شيخ كبير؟ من هو؟
- سندخله الآن إن أردت...
- خرجت الممرضة ومن معها وبعد لحظات من التتمتات وراء الباب دخل الزائر مطأطئ الرأس وعلى شفثيه الياستين ابتسامة ارتياح وخوف.
- العم جورج! أنت أحضرتني إلى هنا؟
- أجل (رد العم جورج بخجل ولم يرفع رأسه بعد).
- لماذا؟ متى؟ ما الذي حصل بالضبط؟
- هل يمكنني الجلوس؟ لقد امتنعت عن الجلوس طوال الليل وأنا في انتظارك حتى تستيقظ... حمداً للرب أنك بخير.
- طبعاً تعال اجلس هنا بقربي على السرير (قال بنبرة استجداء وهو يعدل جلسته بلطف مراقباً الضمادات الملفوفة على ساعده والأجهزة المغروزة في جسده).
- أقدم لك اعتذاري... لقد منعنتي فطرتي من أن أشاهدك تصارع الموت دون أن أمد يدي لتخليصك من معاناتك... أنا أعلم الناس بأنك تعبت من الحياة وتريد التخلص منها، ولكن ذلك ليس بالأمر الصائب لفعله، أنت أفضل من هذا...
- وهل بقيت حياً أصارع الموت حتى الصباح؟ فشلت حتى



في الانتحار؟ أي حياة هذه؟

- أعتذر لك... عندما أتيت إلى الحانة شعرت أن أمراً ما سيئاً سيحدث، حاولت الامتناع عن قراءة الرسالة التي قدّمتها إليّ، ولكنني لم أستطع أن أشفي فضولي إلا عندما فتحتها بعد نصف ساعة من خروجك، وعلمت ما تنوي إليه... فاتجهت مسرعاً نحو بيتك لأجد الباب مفتوحاً وأجدك على كنبتك الزرقاء غائياً عن الوعي والدم يقطر من يدك وسكين في يدك الأخرى لا يحرك ساكناً، بل كان يبدو سعيداً بفعلته، رميته بشدة على الحائط كي أعاقبه واتصلت بالإسعاف وها أنت هنا...

- العم جورج... لا أعرف ماذا أقول لك... أنت فعلاً شخص رائع لم فعلته، ولكنك لم تفهم أن لا وجود لي على هذه البسيطة، مكاني هناك هناك، في الأعلى ينتظرنني مقعدي بجوار صديقي، هو غاضب منك الآن لأنك منعت زيارتي، منعت عني التحول إلى حقيقة...

- الخطأ ليس خطئي، صديقك مارلون حقق جميع المتطلبات كي يصل إلا وجوده.

- متطلبات؟ أية متطلبات؟ ماذا تعني؟

- "الحب... القرآن... ساعة واحدة تكفي" هل نسيت؟

- وما شأن هذا؟

- هل تعرف الحب؟

- حق المعرفة! هو ما أورثه الله على أرضه.

- هل تعرف القرآن؟



- حق المعرفة! هو ضرب من الحب.

- وتبقى النقطة المفقودة... أما مارلون فقد وجد ساعته كاملة حتى يتحول من عدميته إلا وجوده، وأما أنت فقد تم سحبك ثانية إلا العدم قبل انتهاء ساعتك. كنت أنا السبب ولذا أعتذر لك، ولكنك لست بالخبرة الكافية حتى تقطع الطريق كاملاً، الرحلة إلى عالم البرزخ، عالم الفصل بين اللاشيء والشيء، كان أطول مما ظننت، ولم يعد بإمكانك أن تُمضي ساعة واحدة دون أن تعرف مكانك، أليس كذلك؟

- لقد كنت في بلدي، في وطني، هناك قضيت أقل من ساعة.

- وهل بلدك هو وطنك؟

- نوعاً ما...

- لقد كبرت يا صديقي... هل تذكر حين كان العالم هو بيتك؟ كانت أطول مسافة تقطعها هي تلك المسافة بين المطبخ وغرفة نومك... الناس يكبرون والعالم يصبح أصغر... ماذا عن تلك المساحة التي لا تنتهي في حضن أمك وتلك الرحلة الرائعة من ذراع أمك إلى ذراع أبيك؟ ماذا عن تلك المثلجات التي لا تنتهي حتى تُشبع كل لذة أردت أن تشبعها؟ نفس القدر منها لا يحرك فيك الآن ساكنا... ماذا عن تلك الكرة التي تظن حين تركلها أنها تخطت الآفاق ولن تعود إلا بأمر من أخيك؟ لماذا لا تتحرك الآن مهما ركبتها؟ ماذا عن تلك البناية الشاهقة الطول المكونة من طابقين؟ هل علمت الآن أنها لا تلامس السماء، لا هي



ولا تلك المكونة من ألف طابق؟ ماذا عن قصة ما قبل نوم؟ لقد كبرت يا صديقي وعرفت نهايتها... عرفت أن ليلى كانت تستدرج الذئب بمكرها، وأن الدببة الثلاثة كانوا يدافعون عن وطنهم، وأن سندريلا لم تعد خادمة في بيت والديها لتصبح خادمة في قصر الأمير...

ماذا عن الموت يا صديقي؟ هل عرفت الآن أن والدك لم يكن في رحلة إلى بلد غريب؟ وهل عرفت الحب؟ هل عرفت الحب يا صاحبي؟ هل تذكر اليوم الذي عرفت فيه أن الحب لم يكن كافياً؟ ذلك اليوم الذي عرفت فيه أن الحب لم يكن وجه أمك وهي تغير حفاظاتك ولا وجه أبيك وهو يعلمك قيادة الدراجة، ذلك لم يعد كافياً مثلما كان... كبرت الآن وعرفت أن الحب لا يسع الورد والشوك كما علمكم شاعركم الهائم في أوهامه، تعلمت وحدك أن الحب إما ورد وإما شوك، إما حياة وإما موت، إما عدم وإما عدم، ولو وجدت نفسك في الحب انعدمت، وإن عرفت أنك وجدتته اختفى عن ناظريك، تلك لعبة البشر مع الحب، ما كنتم تدعونه في حكيم لعبة الغميضة، وأصل اللعبة أن تعلم أن الحب موجود لا أن تجده... وهل وجدت ربا في طريقك؟ هل تذكر حين كان الرب هو ما يمنعك عن فعل ما هو سيء؟ الآن كبرت وعرفت أن الرب هو ما يسمح لك بفعل ما هو جيد، هو لم يرد منك شيئاً، هو فقط أراد لك كل شيء، هو فقط أحبك...

- سأعيد عليك أول سؤال طرحته عليك منذ أكثر من



- عامين؛ كيف تعرف عني كل هذا القدر؟
- يكفي أن أعرف نفسي كي أعرف كل الناس.
  - إذن تريد مني أن أعرف نفسي قبل أن أموت؟
  - إذا عرفت نفسك لن تموت، من عرف نفسه عرف كل الناس وعرفه كل الناس، ومن عرفه الناس لا يموت، ومن عرفه الرب لا يموت.
  - وكيف أعرف نفسي؟
  - ساعة واحدة تكفي.
  - ولكن الساعة، تلك الساعة، قد تأخذني إلا عالم آخر، وهناك يعرف الجميع أنفسهم.
  - إذن يكفي أن تعرف اسمك.
  - وكيف ذلك؟
  - موت واحد يكفي... كم مت من مرة أنت؟
  - هل موت صديقي يعتبر موتاً لي؟
  - موت صديقك نداء، إما إلى موت أو إلى حياة، ولك الاختيار.
  - اخترت الموت الجسديّ.
  - وهل للجسد حياة أو موت؟ الموت موت الروح والحياة حياة الروح.
  - وأنا عشت أكثر من ثلاثين سنة ميتاً.
  - ماذا عن البارحة؟
  - حلمت أنني حي...



- إذن تخلصت من موتك وتجلى لك اسمك... وماذا كان اسمك في الحلم؟
- نادر! كان اسمي نادر...
- وهل عرفت الفرق بين نادر في الحقيقة ونادر في ذلك الحلم؟
- أجل، في الحلم سمعته بصوت أمي.
- إذن ذلك اسمك وتلك وطنك.
- أمي؟
- حمداً للرب على سلامتك يا صديقي (همس العم جورج مبتسماً وهو يهيم بمغادرة الغرفة)

اكتفى بمشاهدته يخرج وقد تنفس للمرة الأولى في حياته بعد أن طال موته وظن أنه خالد فيه... أغمض عينيه ونام كأنه لم ينم قبلها أبداً، كأنه عاد إلا الرحلة التي لا تنتهي من ذراع أمه إلا ذراع أبيه، وأحس للمرة الأولى في حياته أنه لم يكبر.

تمت